



قصة: طارق توفيق
ترجمة وإعداد:
د. أحمد خالد توفيق

وصية الثلاثين ألف دولار

المؤلف

تكامنا بشيء من
التفصيل عن (مارك توين)
في الكتيب رقم ١٨ من
سلسلة (فانتازيا) ،
وأغلب الظن أن من
يقرءون الكتيب الحالي
قرءوا الكتيب الآخر ؛ لكننا



- من أجل من جاءوا متأخرين - نحكي بعض الأشياء
عن أهم وأعمق وأظرف أدباء أمريكا .. وهذا الكلام ليس
من عندي ولكن سبق أن قاله الأديب الأمريكي العظيم
(إرنست هيمنجواي) -

(صمويل لانجهورن كليمنس) هو الاسم الأصلي له ..
ولد في ولاية (ميسوري) في نوفمبر عام ١٨٣٥ ،
وسرعان ما انتقلت أسرته إلى قرية (هاتيبال) التي
خلدها في الأدب الأمريكي ، وتوفي أبوه وهو في سن

العاشرة ، ليبدأ الصبى كفاحه المضنى من أجل البقاء ، وهو الكفاح الذى رسم كل خط فى أديبه فيما بعد .. وأكثر شخصيات كتبه مارست الوجود فعلاً وقابنها فى مشوار حياته الشاق ..

عمل الصبى عامل طباعة ، ثم استجاب لحلم قديم طالما راوده ، هو أن يعمل على قارب بخارى فى نهر (المسيسبى) ، وكانت له مع النهر قصة حب خلدها فى كتابه (الحياة على المسيسبى) ..

بعد هذا حارب فى أثناء الحرب الأهلية عام ١٨٦١ ، وهى بدورها خبرة لم ينسها قط : « الحرب هى قتل مجموعة من الأغراب الذين لا تشعر نحوهم بأى عدا ، ولو قابلتهم فى ظروف أخرى لقدمت لهم العون أو طلبته منهم .. »

بعد انتهاء الحرب عمل فى الصحافة فى جريدة محلية بـ (فرجينيا) ، واتخذ اسم (مارك توين) وهو مصطلح بحرى معناه (علم على اثنين) يعود لأيام الملاحة فى (المسيسبى) ..

كانت حياة (مارك توين) سلسلة من المصائب ،

فهو الطفل المشاغب الذى لا يقول إلا ما يريد منهما كان قاسياً أو مريراً ، لذا ظفر بعداء الجميع .. وهو الاقتصادى الفاشل الذى يطارده الإفلاس فى كل لحظة ، وهو البائس الذى رأى أخاه يحترق فوق سفينة فى البحر ، حتى إن شعره شاب فى دقائق بعدها .. ولم تكن هذه آخر مأسى حياته ..

لقد مات ابنه الأول ، وتوفيت أعز بناته ، وتوفيت زوجته ..

كان لهذا أثره العجيب فى أديبه : لقد أراد سخرية .. سخرية مريرة قاسية ، ولسان يصعب إسكاته مهما حاولت ، ويرغم هذا كله كان (توين) يحتفظ بالآراء الأكثر صراحة وقسوة لنفسه ، وكان يكتب فى كل موضوع كتابين : كتاباً يخفيه فى درجه ، وكتاباً يعرضه على الناس ..

وكانت شعبية (توين) تتزايد حتى إنه من الكتاب القلائل الذين كانوا يقدمون حفلات قراءة جماعية ، يشترى الناس التذاكر لها ، فقط كي يجلسوا فى مسرح كبير ليصفوا إلى (توين) وهو يتلو ما كتبه ..

إن قصصه هي مرآة صادقة شفافة للمجتمع الأمريكي .. شفافة إلى درجة أنها صارت عالمية ، وغدا الناس جميعاً يستمتعون بحق يأدب هذا الأديب العظيم ، مهما تباينت ثقافتهم وألسنتهم ..

وفى عام ١٩١٠ توفى (توين) ، بعد ما رأى - فى نفس الليلة - مذهب (هالى) يشق السماء ، وهوذات المذهب الذى شق السماء ليلة ولادته ، وبشكل ما كان (توين) يتوقع ويرجو أن يمتد به الأجل حتى يراه مرة ثانية وأخيرة !

د . / أحمد خالد

أهم كتب (مارك توين) :

- الضفدع الوثاب من مقاطعة (كاليفيراس) (١٨٦٥) .
- أبرياء بالخارج (١٨٦٩) .
- مغامرات توم صوير (١٨٧٦) .
- متشرد بالخارج (١٨٨٠) .
- الأمير والفقير (١٨٨٢) .
- الحياة على المسيسيبي (١٨٨٣) .
- شمالي فى بلاط الملك آرثر (١٨٨٩) .
- مغامرات هاكلبرى فان (١٨٨٤) .
- نحو خط الاستواء (١٨٩٧) .
- الرجل الذى أفسد (هادليبيرج) (١٨٩٩) .
- صلاة الجندي (١٩٠٥) .

المصادر :

- ديل كارتيجى : الخالدون ، مطبوعات كتابى (٣) .
- فؤاد دودة : هكذا كتبوا . الدار المصرية للتأليف والترجمة .
- يونيو ١٩٦٦ .

وصية الثلاثين ألف دولار ..

الفصل الأول

كانت (ليك سايد) مدينة صغيرة لطيفة ، بها خمسة أو ستة آلاف مواطن ، وبالنسبة للمدن الأخرى في الغرب كانت جميلة ..

كانت بها كنيسة تتسع لخمسة وثلاثين ألف شخص كما هو معتاد في أقصى الغرب ، حيث الجميع متدين ، وحيث تكثر الجماعات البروتستانتية ..

ولم يكن هناك فارق طبقي في (ليك سايد) ، وعلى كل حال لم يكن أحد يعترف به .. كل واحد يعرف كل واحد وكلبه ، والصدقة الاجتماعية هي أساس العلاقات هنا ..

كان (صلاح الدين فوستر) يملك متجرًا ، وهو أعلى

الرجال دخلًا بالنسبة لمهنته . عمره خمسة وثلاثون عامًا وقد عمل في هذا المتجر أربعة عشر عامًا ، وكان دخله حين تزوج أربعمئة دولار في السنة ، ثم نما دخله بمقدار مائة دولار في العام لمدة أربع سنوات ، ومن وقتها ظل راتبه ثمانمئة دولار في العام ، وهو رقم جميل بحق ، وكان الجميع يعتقد أنه يستحقه .

أما زوجته الوفية (إلكترا) فكانت رفيقة طيبة ، إلا أنها - مثلي - حاملة غارقة في الرومانسية . وبمجرد أن تزوجت ابتاعت فدانًا عند أطراف المدينة دفعت ثمنه خمسة وعشرين دولارًا هي كل ثروتها ، وكان هذا برغم أنها كانت طفلة في التاسعة عشرة من عمرها وقتها ..

وفي هذا الفدان زرعت حديقة بالخضر ، وصارت الحديقة تقدم ربخًا مائة في المائة كل عام . ومن راتب زوجها أودعت (إلكترا) ثلاثين دولارًا في المصرف أول عام ، ثم ستين في العام التالي ، ومائة في الثالث ، ومائة وخمسين في الرابع ..

وجاء طفلان فزادت النفقات ، إلا أن (إكترا) ظلت
قادرة على الدخار مانتين من الدولارات كل عام من دخل
زوجها ، وبعد سبع سنوات استطاعت أن تبني منزلاً
جميلاً مريحاً بألفى دولار في وسط المزرعة ، ودفع
نصف المال ..

وبعد سبع سنوات أخرى انتهت من الديون ، وصار
لها في المصرف مئات الدولارات التي تنمو باستمرار ..
وكان طفلها ينمو سناً وجمالاً ، وكانت امرأة سعيدة
بزوجها وطفليها ، وعند هذه النقطة تبدأ قصتنا ..

الفتاة الصغرى للزوجين هي (كليمتسترا) - ويدلونها
باسم (كليتي) - في الحادية عشرة من عمرها ، أما
الآخرى فـ (جويندولين) التي يدلونها باسم (جوين) ،
وكانت في الثالثة عشرة من عمرها ، وهي فتاة طيبة
مليحة ..

كانت أسرة متعاطفة ، ولكل من أفرادها اسم تدليل ،
فمثلاً (صلاح الدين) كانوا يدلونه (سالى) ، و (إكترا)
كانوا يدلونها (إيك) .

وفي الليل كانت الأميرة تجتمع في غرفة المعيشة
الهادئة الدافئة ، حيث يتخلص أفرادها من هموم العالم ،
ويعيشون في عالم الكتب الرومانسي ويحلمون .. يمرحون
مع الملوك والأمراء والوردات ، والأماكن النبيلة ،
والقلاع الغامضة العتيقة ..

* * *

الفصل الثانى

الآن جاءتهم أخبار عظيمة .. أخبار مذهلة ..

جاءتهم من الضيعة المجاورة حيث يعيش القريب الوحيد للأسرة .. كان عمًا مبهمًا أو ابن عم لـ (سالى) يحمل اسم (تلبيرى فوستر) .. فى السبعين من عمره .. عزب .. اشتهر بجفاف الطبع والحدة ..

وقد حاول (سالى) أن يرسل له خطابًا مرة ، لكنه قرر ألا يكرر هذا الخطأ ثانية ..

فى هذه المرة كتب (تلبيرى) لـ (سالى) يقول له إنه سيموت قريبًا ، وسوف يترك له فى وصيته ثلاثين ألف دولار نقدًا .. ليس لأنه يحبه ، ولكن لأن هذا المال سبب أكثر متاعبه ، وهو يريد أن يتأكد أن المال سيواصل مهمته الخبيثة ..

إن الإرث موجود فى الوصية وسيتم دفع المبلغ لكن بشرط : على (سالى) أن يثبت لمنفذى الوصية

أنه لم يعلن الخبر لأحد ، ولم يتساعل عن حالة المحتضر ومدى دنوه من الخلاص النهائى ، ولم يحضر الجنازة ..

فما إن شفيت (أليك) من الصدمة التى سببها لها الخطاب ، حتى أرسلت إلى الضيعة التى يعيش فيها (تلبيرى) ، واشتركت فى الجريدة المحلية ..

وقرر (سالى) وزوجته ألا يذكر الأخبار العظيمة لأحد ، وإلا فإن أحدا ما سينقل هذه الأخبار إلى فراش المحتضر ، حيث يظهران فى صورة الجاحدين للجميل المتعجلين لموت الرجل ..

ولبقية اليوم ظل (سالى) يحدث أكبر فوضى فى متجره ، و (أليك) لم تستطع إبقاء ذهنها بعيدًا عن الأمر ، وكانت تتناول أصيص زهور أو كتابًا أو عصًا .. ثم سرعان ما تجد أنها نسيت ما كانت تفوى عمله بها .. كان كلا الزوجين يحلم ..

ثلاثون ألفًا من الدولارات !

طيلة اليوم ظلت موسيقا هذه العبارة تتردد فى ذهن الزوجين .. منذ زواجهما حتى اليوم كانت (أليك) مقتصدة تمامًا ، وما كان (سالى) يعرف كيف ينفق مليًا على غير الضروريات ..

لكن ثلاثين ألفاً من الدولارات ! مبلغ ضخم .. مبلغ
يصعب استيعابه ..

وظلت (أليك) طيلة اليوم تفكر فى كيفية استثمار
المبلغ ، أما (سالى) فكان يفكر فى كيفية إنفاقه ..
وفى هذه الليلة ثم يطالعا كتبهما الرومانسية ،
ودخلت الطفلتان إلى الفراش مبكراً لأن أبويهما كانا
صامتين مملين إلى حد غريب .. وحتى قبلات المساء
لم تحدث تأثيراً ، لأن الوالدين لم يشعرا بالقبليات على
الإطلاق ، وممرت ساعة قبل أن يلاحظ أحدهما أن
الطفلتين دخلتا الفراش ..

طيلة هذه الساعة كان قلمان مشغولين بالكتابة ،
يدونان مئات الخطط والتصورات ..

كان (سالى) هو من حطم هذا الصمت ، حين قال
فى ابتهاج .

- « أه ! سيكون هذا عظيماً يا (أليك) .. من أول
ألف سنحصل على عربة وحصان لرحلات الصيف ،
وبطانية للشقاء .. »

أجابت (أليك) فى تصميم ورياضه جأش :



طيلة هذه الساعة كان قلمان مشغولين بالكتابة ، يدونان مئات
الخطط والتصورات ..

- « ليس من رأس المال .. حتى لو كان المبلغ مليون دولار ! »

أصاب (سالى) الإحباط واختفى البريق من وجهه ، فقال :

- « لقد عملنا بجهد طيلة حياتنا ، ومن الواجب أن .. »

يبدو أن نهجته المتضرعة أثرت فيها ، لأنها قالت متلطفة :

- « لا يجب أن تنفق رأس المال يا عزيزى .. ليس هذا من الحكمة فى شيء .. يمكننا أن نعيش من عائد ادخاره .. »

- « حقاً أنت حكيمة .. سنعيش من الدخل .. »

- « ليس كله يا عزيزى .. يمكنك أن تنفق جزءاً من هذا الدخل .. أنت تفهم منطقى أليس كذلك ؟ »

- « بلى .. بلى .. لكن معنى هذا أن ننتظر ستة أشهر حتى ننفق أول أرباح تأتينا .. »

- « بل ربما أكثر من ستة أشهر .. »

- « لماذا يا (أليك) ؟ إنهم يصرفون العائد كل ستة أشهر .. »

- « فى الاستثمار التقليدى نعم .. لكن ليس فى نوع الاستثمار الذى أفكر فيه من أجل عائد أكبر .. »

- « وما هو ؟ »

- « مزاجم الفحم الجديدة .. سنضع الحد الأدنى ونحصل على ثلاثة أنصبة لكل واحد .. وخلال عام نظفر العشرة آلاف بثلاثين ألفاً .. إننى أعرف كل التفاصيل .. إنها منشورة هنا فى جريدة (سنسيناتى) .. »

صاح :

- « عشرة آلاف تجلب ثلاثين ألفاً ! قلنضع كل شيء ونحصل على تسعين .. سأشترك الآن ! »

لكن (أليك) أوقفته ، وذكرته بأن المال ليس لديهما بعد .. قال لها :

- « إن الرجل على خافة المائة ، ولا بد أنه يموت الآن .. أو ربما انتهت ألامه فعلاً .. »

هزت رأسها فى ضيق وقالت :

- « كيف تتكلم بهذه الطريقة يا (سالى) ؟ إنها مشينة .. »

- « ألا يمكنك أن تتركي شخصاً يتكلم ؟ »

- « ولماذا تتكلم بهذه الطريقة الشنيعة ؟ كيف تحب أن ترى الناس يتكلمون عنك هكذا ، بينما لم تبرد جثثك بعد .. »

- « لا أظن أنني أحب هذا .. لكن هذا سيحدث لو منحت الناس مالا لمجرد أن أؤذيهم به .. وعلى كل حال دعينا من (تلبيري) هذا .. ماوجه اعتراضك على استثمار الثلاثين ألفاً كلها في الفحم ؟ »

- « كل البيض في سلة واحدة .. هذا هو سبب اعتراضى .. »

- « ليكن .. وماذا تنوین عمله بالعشرين ألفاً الباقية ؟ »

- « لا داعى للتعجلة .. سأبحث حولى جيداً لأعرف ما أفعله بها .. »

- « إذن ما زال يوسعى أن آخذ ثلاثة آلاف من أرباح العشرة ؟ »

كانت راضية رائعة البال ، لهذا أجرت حسبة فى ذهنها ، شعرت بأنها تبذير سفيه ، لكنها سمحت له بألفى دولار على كل حال ..

قبلها فى حرارة نصف دسنة من القبلات ، وجعلها هذا أقل حصافة ، لذا - قبل أن تدرك الأمر - منحته ألفى دولار آخرين ..

وجلس (سالى) فى حماس يدون الأشياء التى يود أن يشتريها فى البداية .. عربة .. حصان .. كلب .. قبة .. أسنان جديدة ..

أما هى فواصلت حساباتها .. كان عليها أن تستثمر الثلاثين ألفاً التى هى أرباح الفحم عن عام واحد .. وبعد ما استثمرت المبلغ فى القمح والتفط صارت أرباحها ثمانين ألفاً صافية ..

- « رباه ! أليس هذا رائعاً ؟ لقد قابلتنا الحظ أخيراً بعد كل الكفاح الشاق .. »

وراضياً اتجه إلى الفراش ، ولحقت به .. كانا محلقين حتى إتهما نسيا الشمعة مشتعلة فى الردهة ، وتذكرها (سالى) بعد ما نزع ثيابه ، لكنه رأى أن يتركها تذوب كلية ، فهما قادران على هذا الإسراف ، لكن (أليك) أصرت على أن تطفئها ..

وكان هذا تصرفاً موفقاً ، لأنها إذ عادت من
الترده وجددت فكرة طيبة يمكنها أن تجعل الثلاثين ألفاً
نصف مليون ..

* * *

كانت الصحيفة التي اشتركت فيها (أليك) تدعى
(ساجامور الأسبوعية) ، وكان عليها أن تقطع
خمسمائة ميل من قرية (تلييري) كي تصل إليهما
يوم السبت ، لأنها تصدر يوم الخميس ..

لقد جاءهما خطاب (تلييري) يوم الجمعة متأخراً
بما لا يكفي أن تظهر وفاة الرجل في هذه الطبعة ،
لكن من الممكن أن تظهر في الطبعة التالية ..

لهذا انتظر آل (فوستر) أسبوعاً طويلاً ثقيلًا ،
وما كانا ليحتملان هذا الأسبوع لو لم يجد عقلاهما
شيئاً يشردان فيه .. فكما رأينا كانت المرأة مشغولة
بتكديس المال ، والرجل كان ينفقه ..

في النهاية جاء السبت ، وجاءت الصحيفة
(ساجامور) ، وكانت زوجة الخوري تعمل عندهما
على سبيل الإحسان .. فلاحظت المرأة أن الزوجين

الفصل الثالث

لا يصفيان لحرف مما تقول ، لذا انصرفت شاعرة
بحيرة ومهانة ..

على الفور مزق (سالى) المغنث ليخرج الصحيفة ،
وجرت عينا الزوجين عبر سطور صفحة التوفيات ..
يا خيبة الأمل ! (تليبرى) غير موجود ..

تماسكت (أليك) كالعادة ، وقالت بلهجة مثيرة
بالتقوى :

- « فلتحمد الله فى تواضع .. لقد نجا الرجل .. »

قال (سالى) :

- « سحقاً للرجل المخادع ! أتمنى لو .. »

- « (سالى) ! هذا مشين .. »

قال فى غضب :

- « لا أهتم .. أنت كذلك تشعرين بالشيء ذاته ،

ولو لم تكونى طاهرة إلى هذا الحد المخجل لقلت ذات
الكلام بأمانة .. »

فى كبرياء جريئة قالت :

- « لا أدري ما الذى يجعل الأمور غير جريئة
وغير عادلة كهذا .. لا يوجد شيء أكثر سمواً من
الظهر الخالد .. »

أخس (سالى) بغصة حاول أن يخفيها ، كأنما
يوسعه أن يخدع تلك المرأة الخبيثة التى يحاول
خداعها :

- « لم أقصد شيئاً بهذا السوء يا (أليك) .. أعنى ..
قلت .. كنت أتكلم عن الأسلوب الثقيل الذى فى إظهار
الإخلاص .. أنت تعرفين ما أعنيه .. إخلاص المتاجر
الذى نخدع به الزبائن .. حسن .. هلمى .. أنا لا أجد
الكلمات المناسبة ، لكنك تفهمين ، وتدرकिन أنه لا ضرر
هناك .. »

- « حسن .. لكنه الموضوع .. »

جفف العرق عن جبينه ، واعتذر لها :

- « ليكن .. أنا ضعيف فى هذه اللعبة ، وليس لدى

الصبر الكافى .. »

ثم هدأ بعد ما اعترف بهزيمته ، فسامحته (أليك)
بعينها ، وفيما بعد ناقش الزوجان لغز اختفاء نعى

(تليبيرى) من الجريدة .. وفى كل مرة كنا يصلان
إلى نفس النقطة ، وفى النهاية توصلنا إلى أن التفسير
الوحيد لعدم وجود نعى لـ (تليبيرى) هو أن الرجل
- حتماً - مازال حيًّا ..

كان هذا مخزنًا .. وبالإضافة لهذا كان فيه شيء
غير عادل .. لكنه حدث ولا يد من قبونه ..

وحاول (سانى) يائسًا أن يجعل زوجته تشاومه
الحزن ، لكنه فشل لأنها احتفظت برأيها لنفسها .. لم
تعتقد أن تجازف أبدًا فى هذا العالم أو سواء .. يجب
أن ينتظروا للأسبوع القادم ، لأن (تليبيرى) قد تكاسل
عن أداء واجبه ..

واتهمكما فى العمل بإخلاص قدر الاستطاعة ..

لم يعلمنا أن (تليبيرى) قد كان عند كلمته حرفيًا ..
لقد مات وفى الوقت المحدد .. مات منذ أربعة أيام واعتاد
الأمم .. مات بدقة .. مات قبل إصدار جريدة (ساجامور)
بوقت كاف ، لكن ما منعه من الظهور هو حادث ..
حادث ما كان ليحدث فى جريدة كبرى لكنه يحدث
كثيرًا فى قرية بانسة قبل (ساجامور) .

كان رئيس التحرير قد تلقى هدية من عصير الفراولة
(اشمليك) البارد من مؤسسة (هوسنتر) التجارية ،
من ثم تم إبعاد نعى (تليبيرى) كي يجد رئيس التحرير
مكانًا ينشر فيه شكره العميق المحموم ..

وفى طريقه إلى نوح التجميع تبعثت حروف نعى
(تليبيرى) ، وبالتالي لن يجد طريقه إلى الطبعات
التالية .. لقد ضاعت فرصته فى النشر للأبد ..

قليرقد (تليبيرى) فى قبره .. إن نعيه لن يرى النور
حتى يوم الدين ..

الفصل الرابع

مضت خمسة أسابيع مرهقة ، وكانت جريدة (ساجامور) تصل كل سبت لكن لم تحو أية نسخة منها خبر وفاة (تليبرى) ، وهنا اتهارت أعصاب (سالى) وبامتعاض قال :

« تبا لأحشائه ! إنه خاكد ! »

وبخته (أليك) بشدة ، وأضافت بوقار جليدى :

« كيف ستشعر لو أنك مت فجأة ، بعد ما تلفظ عبارة شنيعة كهذه ؟ »
بلا اهتمام أجاب :

« سأشعر بأننى محظوظ لأننى لم أمت وهى محشورة فى حلقى ! »

قالها وفر مبتعداً عن مرمى مدفعية زوجته ..

★ ★ ★

جاءت ستة أشهر وولدت ..

ومن حين لآخر كان (سالى) ينسى ، وتفلت منه تلميحة أو أخرى إلى أنه يريد أن يعرف ، لكن زوجته كانت تردعه بقسوة ..

قرر أن يخاطر بهجمة أمامية ؛ أن يتنكر ويذهب لـ (ساجامور) كى يتشمم الأخبار ، إلا أن (أليك) وضعت قدمها فى الأمر ، وقالت :

« فيم تفكر ؟ إننى مشغولة بك طيلة الوقت كطفل لإبقائك بعيداً عن النار .. »

« ولماذا ؟ أستطيع أن أذهب ولا يكتشف أمرى أحد .. أنا متأكد .. »

« (سالى فوستر) .. سيكون عليك أن تجرى بعض التحقيقات ، وتساأل .. سيكون هذا مغروراً لمنفذى الوصية على الفور .. »

لم يجد ما يقول فقالت :

« الآن أبعد هذه الفكرة عن رأسك ولا تعيث بها ثانية .. إن (تليبرى) قد أعد لك هذا الشرك .. ألا تفهم أن هذا شرك ؟ »

إلهم يرأفونك وينتظرون ، وسوف تصيبيهم خيبة
الأمل ما دمت أنا من يتولى الأمر .. »
ثم أضافت :

« لا تفقد صبرك .. إن أحوالنا المالية تزدهر
فلاداعي للعجلة .. وأنا لم أرتكب أى خطأ .. إن المال
يتقدس بالألوف ، وما من امرأة فى المنطقة تملك هذا
الثراء الفاحش .. احمد الله (تعلى) وكف عن القلق ..
فما كان بوسعنا أن نحقق كل هذا دون عونه العظيم ..
المشكلة معك هى أنك لا تستطيع أن تفتح فاك دون أن
تجعل المرء يرتجف فرقا .. إنك تجعلنى فى خوف مستمر
عليك وعيننا جميعا .. كنت فيما مضى لا أخاف الرعد ..
أما الآن »

وتحطم صوتها فراحت تبكى ، ولم تكمل عبارتها ..
مرق هذا المشهد (سالى) فأراحها بين ذراعيه ،
وسألتها العفو ، ووعدتها بأن يكون أفضل ..

وكان جادا فى رغبته هذه ، لذا فكر فى الأمر
طويلاً .. من السهل أن تعد بالاستقامة لكن من
الصعب أن تفعلها .. يجب أن يقوم بشيء أكيد ..

ويميل باهظ من المال الذى كان يدخره شلنا مع
شلن وجد خلأ ذكياً :

وضع على سقف البيت قضيباً واقياً من الصواعق !

* * *

ما أسهل اكتساب العادات ! وما أسرع ما نكتسبها !
العادات البسيطة والعادات التى تغيرنا بعمق .. لو صحونا
بإصدفة لينتين متتاليتين فى الثالثة صباحاً ، فعلياً أن
ننطق .. لأن تكرار هذا مرة ثالثة سيجعله عادة ..

لكننا جميعاً نعرف هذه الحقائق .. عادة بناء القلاع ..
عادة أحلام اليقظة .. لكم تصوير ممتعة ، ولكم نعربد فى
متعتها ونضع فيها أرواحنا ، ونسلم أنفسنا تخيلاتنا
الملحة القاهرة ، وسرعان ما تختلط حياة الأحلام بالحياة
الواقعية حتى لا نعرف أين نحن بالضبط ..

لقد اشتركت (أليك) فى جريدة مالية مختصة بالأسهم
تصدر من (شيكاغو) بها مؤشرات (وول ستريت) ،
وراحت تدرس هذه الأمور كما كانت تدرس الإنجيل
أيام الأحد ..

ونمت موهبتها التنبؤية بصورة لا تصلىق ،
وازدادت خبرتها بالأسواق . وكان (سالى) فخوراً
بجراتها فى المضاربة وحذرهما المتحفظ فى إجراء
الصفقات الخيالية ، فلم تفقد صوابها قط ..

ومرت أشهر صنعت فيها (أليك) ثروة خيالية
بسرعة لم تتخيلها قط ..

فى البداية استثمرا عشرة آلاف وهمية ، فعادت
لهما بعد عام وعلى ظهرها ثلاثمائة ألف تخيلية ..
وفقد آل (فوستر) القدرة على الكلام من الحبور ..

هنا قررت (أليك) بكثير من الذعر أن تستثمر
العشرين ألفاً الباقية من الوصية ، وراحت طينة
الوقت تخشى أن يحدث انهيار فى السوق ، وأخيراً
أرسلت برقية تخيلية لمسار البورصة التخلي تأمره
فيها بأن يبيع الأسهم .. وتم البيع فى نفس اليوم ..

وبدا قلب (أليك) يزداد جرأة ..

ولو نظرنا من خلال عيشى هذين التحالمين ، نراهما
أن كوخهما الخشبي يحتفى ويحل مكانه منزل قرميدى
ذو طابقين نه سور حديدى ، وثرىا عملاقة تتدلى من

سقف البهو ، وسجادة المنزل تتحول إلى بساط
بلجيكى فاخر ، والتحف المهيبة فى كل مكان ..

ومن هذا الوقت كان قلق (أليك) يتزايد بسبب فواتير
الغاز ، فيجيبها (سالى) فى استهتار :

« وماذا هناك ؟ يمكننا تحمل هذا الإسراف .. »

وقرر الزوجان أن يقيما حفلاً بمناسبة ثرائهما ،
لكن كيف يمكن شرح الأمر للفتاتين والجيران ؟ لا يمكن
أن يعننا للناس أنهما ثريان ..

بم يحتفلان إذن وليست هناك أعياد ميلاد خلال
ثلاثة أشهر ؟

فى النهاية وجد (سالى) فكرة عبقرية .. سيحتفلان
باكتشاف أمريكا !

إنها فكرة عظيمة ..

وقالت (أليك) فى إعجاب إنها ما كانت لتجد فكرة
كعده ، لكن (سالى) - برغم ما بدا على ملامحه من
سرور - قال إن الأمر ليس بهذه الأهمية ، وأى شخص
آخر كان سيفكر فى الشيء ذاته .. هذه المرأة العزيزة ..

إنها تراه موهوباً ، وحتى لو كان حبها له هو ما جعلها
تبالغ قليلاً ؛ فهذه جريمة بسيطة يمكن غفرائها من
أجل صاحبيتها ..

كان الأصدقاء جميعاً موجودين في الاحتفال .. الكبير
والصغير .. فيين الصغار كانت (فلوسى) و (جريسى
بينت) وأخوهما (أدلير) .. وكان حرفياً شاباً ..
و (هوزانا ديكنز) الذى كان يدرسه ..

ولعدة أشهر كان (أدلير) و (هوزانا) يهتمان بابنتى
(فوستر) ، وقد لاحظ الأبوان فى رضا هذا الاهتمام ..

لكنهما الآن شعرا بأن ثراءهما قد وضع حاجزاً
اجتماعياً بين ابنتيهما والحرفيين انشايين .. إن يوسع
الفتاتين الآن النظر لأعلى .. بل يجب عليهما هذا ..
يجب أن تتزوجا من طبقة المحامين أو التجار أو أعلى ..

لم يظهر الزوجان على السطح إلا الكبرياء والتعذيب
الراقى اللذين فازا بإعجاب ودهشة الحاضرين ، لكن
أحداً لم يفهم سر هذا اللغز ، وقد علق ثلاثة أشخاص
على الأمر دون أن يدركوا كم هم موفقون :

- « يبدو كأن آل (فوستر) قد فازوا بأبعية .. »

كانت (أليك) عملية جدًا ، ولا تتصرف كأي أم أخرى
فيما يتعلق بزواج ابنتيهما .. فلم تحاول أن تبعدهما
عن الحرفيين لكنها قررت أن تترك الطبيعة تختار ..

في البداية فكرت في (برانديش) المحامي الشاب ،
و (قلتون) طبيب الأسنان الصاعد .. يجب أن يدعوهما
(سالي) للعشاء لكن ليس الآن .. لا خطر من الإبطاء
في أمر مهم كهذا ..

واتضح أن هذه هي الحكمة بعينها ، لأن (أليك)
أحرزت ضربة قوية في سوق الأسهم ، جعلتها تحرز
أربعمائة ألف دولار مرة واحدة ..

وفي هذه الليلة سمحت (أليك) بتقديم (الشمبانيا)
على مادة العشاء ، وشعرت بخجل لهذا لأنها تربت على
الفضيلة ، وكانت قد استهافتها صلبة كحديد الغلايات .. لكن
الثراء قد بدأ يفسدهما تدريجيًا .. لقد برهننا على
حقيقة تمت البرهنة عليها مرارًا من قبل ، وهي أن
المبادئ درع واق من التفاهات والردائل .. لكن الفقر
يهزم ستة دروع من هذه ..

الآن ناقشنا موضوع الزواج ثانية ، فلم يذكر اسم
طبيب الأسنان والمحامي .. لقد صارا خارج السياق ..

تحدثنا عن ابن تاجر الخنازير ، وابن مدير مصرف
القرية ، وفي النهاية قررا أن ينتظرا ويتصرفا في
حكمة ..

قامت (أليك) بمضاربة قوية .. وظلت أيامًا في
شك لأن الفشل هنا يعني الخراب ولا شيء سواه ، ثم
جاءت النتيجة فأغشى عليها من الفرحة .. وحين
أفاقَت قالت بصوت متهدج :

- « لقد انتهت المعاناة يا (سالي) .. نحن نملك
مليونًا الآن ! »

بكى (سالي) فرحًا ، وقال :

- « آه يا (أليك) يا حبيبة قلبي ! لن نحتاج إلى
التفتير ثانية .. »

وهكذا طار ابن تاجر الخنازير ، وابن مدير المصرف ،
وبدأ الزوجان يفكران في ابن الحاكم وابن عضو
مجلس الشيوخ بالقرية ..

الفصل السادس

من المدهش أن تتابع بالتفصيل وثبات آل (فوستر)
في الثراء التخيلي من وقتها .. كانت وثبات مذهلة ..
وثبات مبهرة .. وثبات تسبب دواراً ، وراحت الملايين
تتكلم فوق الملايين حتى وصلت إلى قمة السماء .
وما زال التيار يتدفق ..

خمس ملايين .. عشرة .. ثلاثون .. هل هناك
نهاية ؟

مرّ عامان في حلم رائع ، ولم يلحظ آل (فوستر)
مرور الوقت .. إن معهما الآن ثلاثمائة مليون دولار .

وبمرور الزمن صار لديهما ٢٠٠.٠٠٠.٠٠٠ ر
دولار .. وبدأ العمل يوتيك وصار من الضروري أن
يقوما بجد ما لديهما من ثروة .. شعرا بهذا ..
لكنهما اتزكا أن المهمة يجب أن تتم حتى نهايتها
بلا توقف متى بدأت .. مهمة تقتضي عشر ساعات ،
وأين يمكن أن يجدا عشر ساعات كاملة مرة واحدة ؟



مرّ عامان في حلم رائع ، ولم يلحظ آل (فوستر) مرور الوقت ..
إن معهما الآن ثلاثمائة مليون دولار ..

كان (سالى) مشغولاً فى المتجر و (أليك) كانت مشغولة بالطهى وغسيل الصحون والتنظيف ، ولم تكن إحدى القتاتين تساعداهما لأنها أخرتهما لمجتمع الصفوة .

كانت هناك طريقة واحدة للظفر بعشر ساعات ، وقد خجل كلاهما من تسميتها ، وانتظر كلٌ حتى يقول الآخر ذلك .. فى النهاية قالت :

- « يجب أن يستسلم أحد .. فلتفترض أننى سميتها ولا تتضايق من هذا .. »

واحمر وجهها ، ودون تعليق آخر قاما بهدم قاعدة عدم العمل يوم السبت^(*) فقد كان هذا هو اليوم الوحيد الذى يمكن أن يجدا فيه عشر ساعات كاملة .. ومن هنا بدأ انحدارهما لأسفل ..

إن للثروة الواسعة إغراءات ، تهدم بسهولة التركيب النفسى لأولئك الذين لم يعتادوا امتلاكها .. لقد حطما قاعدة السبت ، وبعد جهد جهيد استطاعا جرد ثروتهما ..

(*) الزوجان مسيحيان لكنهما يتبعان قاعدة عدم العمل يوم السبت (Sabbath) التى يتسك بها اليهود ، والمقصود هنا أن الثراء جعلهما يتأزلان دينياً ..

قائمة طويلة هى تبدأ بالسكك الحديدية وكابلات المحيط والسفن البخارية وسلوك البرق ، وانتهاء بمقاطعة (كلوندايت) و (دى بير) ..

ودخل كل هذه الأملاك مائة وعشرون مليوناً سنوياً ..

قالت (أليك) فى رضا :

- « لقد انتهى العمل ، وحان الوقت كى ننعم بكل هذا المال .. »

شعر (سالى) بأن طناً من الأصفاد الحديدية سقطت من على كاهله ..

ومن يومها اعتاد الزوجان أن يخرقا قاعدة السبت ، واعتادا أن يسهرا إلى ما بعد منتصف الليل ينفقان ثروتهما ، وسبب هذا لهما مشكلة فى ثمن الشمع الذى يبددانه ، حتى شعرت (أليك) بالقلق ..

وسرعان ما أدركت أن زوجها يسرق الشمع من المتجر دون أن يخبرها حتى يستطيعا السهر أكثر ..

هذه هى المشكلة .. إن الثروة الغريضة لرجل لم يعتدها هى السم بعينه .. إنها تلتهم أخلاقه لحمًا وعظماً ..

حين كان (سالى) غطيراً كنت تستطيع أن تثق به
فيمّا يتفق بالشمع . أما الآن .. لكن دعنا لا نتجادل
كثيراً .. إن الانتقال من سرقة الشمع إلى التفاح ليس
سوى خطوة ..

واعتاد (سالى) أن يسرق التفاح من متجره .. ثم
العصابون .. ثم سكر الشعير .. ثم البضائع الصغيرة .. إن
هذا سهل ما دام اتخذ الخطوة الأولى لأسفل ..

في أولئك ذاك تحول البيت القرميدي إلى بيت من
البرقيش .. ثم تحول هذا إلى بيت أعرض وأكبر وأجمل ،
حتى جاء اليوم الذي يعيشان فيه في قصر يطل على
الوديان والأنهار .. منكمها لماماً .. يملأه الخدم
والضيوف المشهورون ذوو النفوذ من كل العالم ..

وصار هذا القصر قلعة لا توصف من الأرستقراطية
الأمريكية .. نحو الشرق .. في جزيرة (رودس) ..
كانا يمضيان السبت من كل أسبوع في هذا القصر ،
وباقى الأسبوع في أوروبا ..

وقد ظلا مخلصين لثقتيهما الإثريكية الصغيرة ..
وإن كانت خيالات (أليك) أقل جموحاً من خيالات
(سالى) ..

في البداية زارت (أليك) مجمع الأسقفية ثم زارت
(روما) ، حيث استقبلها الكرادلة بالشموع ..

أما (سالى) فكانت أحلامه أكثر إثارة .. انضوة
تتبع .. وازداد تذبذباً للدرجة لا تصدق ..

بنت (أليك) جامعة أو فكتين ، وميتشفسى ،
وماندراية .. أما هو فعلى عدة غنائق ..

وبدأ الرجل يلوم نفسه على ما كان عليه في أعوام
القراء هذه ، وقارن بين نفسه وأولئك .. وراح ينادى
بحمران ، وروحه تغرق حزناً ..

انظر لها .. إنها ترتفع وتعلو .. بينما هو يهوى في
التفاهات .. لكم هو خاوي ! ماذا يقول لنفسه ؟ ماذا كان
يفعل حين بنت أول كنيسة لنفسها ؟ كان هو يصحب
المليونيرات إلى أندية البوكر ، ويحضر في كل جلسة
عناات الأكلوف .. وحين بنت أول كنيسة لها ماذا كان
يفعل ؟ كان مع أصدقاء السوء .. وحين أنشأت أول مصحة
عقلية ماذا كان يفعل ؟ يا تلحصرة ! وعين استقينت في
(روما) وقابلها البابا وخلع عليها وسام الزهرة الذهبية ،
ماذا كان يفعل ؟ لن يستطيع التمسك .. لن يتحمل أكثر ..

يجب أن يعرف الناس حياته السرية .. لن يعيشها
في الخفاء .. لسوف يخبرها بكل شيء ..

وأخبرها وبكى وتوسل إليها كي تسامحه ..

كانت صدمة هائلة لها ، وتراجعت .. لكنه كان ملجأ
لقلبيها ونعمة عينها وكل شيء فيها ، لذا لم تستطع
إلا أن تسامحه ، وإن أدركت أنه لن يعود كما كان ..
سيندم فقط لكنه لن يستقيم ثانية ..

لكنها برغم كل شيء فتحت له قلبها المقعم بالحنين ..

★ ★ ★

الفصل السابع

في عصر أحد أيام الأحد كانا يركبان يختهما في
بحور الصيف ، يسترخيان تحت مظلة على السطح ..
لقد زادت فترات صمتهما في الآونة الأخيرة ، وقد
بهنت الرابطة القوية بينهما ..

لقد حاولت (أنيك) مراراً أن تنسى اعتراف (سالي)
المخيف لها لكنها لم تستطع .. الآن تستطيع أن ترى أن
زوجها صار شيئاً منتفخاً مقرراً .. لكنها بدورها كانت
تخفي عنه سرّاً مخيفاً ، وفي هذا لم تعامله بشرف ..

لقد قامت بكل ثروتهما في شراء كل السكك
الحديدية وكل مناجم الفحم في البلاد ، وكانت ترتجف
كل سبت خشية أن يكتشف ذلك من كلمة عارضة
تتفوه بها ، وكانت خجلى من خيانتها هذه ، فلم
تستطع أن تمنع نفسها من الإشفاق عليه ..

نكم يملؤها تأنيب الضمير وهي تراه يرقد هناك سعيداً ،
واثقاً بها تماماً ، وهي تدارى عنه كارثة رهيبية محتملة ..

قال لها :

- « هل تعلمين يا (أليك) ؟ »

أجابت بكل رقة مصطنعة :

- « نعم يا عزيزي ؟ »

- « أعتقد أننا نرتكب خطأ .. أعني يصدد موضوع

الزواج .. »

وجلس - رخواً بديناً - وتكلم بجدية :

- « لقد مرت خمسة أعوام ، وقد واصلت سياستك من

البدائية ، وكلما اعتقدت أننا سنرى زفاف البنتين وجدت

أنت شيئاً جديداً في الأفق .. أعتقد أنك صعبة الإرضاء ..

في البدائية تخلينا عن طبيب الأسنان والمحامي .. قد

أوافقك في هذا .. ثم تخلينا عن ابن الحاكم وابن عضو

مجلس الشيوخ .. قد أقبل هذا .. بعد هذا جاء ابن

رئيس الولايات المتحدة .. ربما كان هذا صائلاً .. ثم

قررت أن تفتشي عن الأرستقراطية ، وحسبت أننا نجحنا

أخيراً .. جاءنا اثنان من الأرستقراطيين الحقيقيين من

أوروبا ، فإذا بك ترفضينهما ببساطة .. لقد تخلصت من

(أليارونيت) من أجل (البارون) .. وتخلصت من

(البارون) من أجل (الفيسكونت) .. وتخلصت من

(الفيسكونت) كي تظفري بـ (إيرل) .. وتخلصت

من (الإيرل) من أجل (ماركيز) .. وتخلصت من

(الماركيز) من أجل (دوق) .. يجب أن تهدئي

يا (أليك) .. لقد وصلت إلى الذروة .. لقد جاءك

أربعة دوقات من أربع جنسيات لا غبار عليهم في

النسب .. لا تتأخري أكثر من ذلك .. »

وكان يتسم في صفاء ورضا ، وهو يقول ما قال ..

كانت عيناها تشعان بدهشة لطيفة وهي تصغي ، ثم

صالت عليه هامة :

- « (سالي) .. ماذا تقول عن الأسر المالكة ؟ ! »

- « مذهل ! »

إن الرجل المسكين فقد توازنه اللحظة ، ثم جلس

أمام زوجته ، وغمرها بالبهارة واحترامه ، وقال :

- « (أليك) .. أنت أعظم امرأة على وجه الأرض ..

لن أخير أبداً حجمك الحقيقي ولا أعماقك .. حسبت نفسي

مؤهلاً لانتقاد لعبتك ، ولم أدر أنك تخفين شيئاً في كمالك .. »

قربت المرأة شفقتها من أذنه وهمست باسم :
فصاح :

« إنها ضريبة موفقة بحق .. وهو يملك مقبرة
كاملة في أجمن بقعة بأوربا .. وهي مقبرة من أرقى
مقابر العالم ، ولا يدفنون فيها إلا حالات الانتحار ..
إن لديه ثمانمائة فدان .. لكنها السيادة وهي أهم
شيء .. إنها أهم من الأرض .. إن الأرض لا تساوي
شئنا ، والصحراء مليئة بها على كل حال .. »
قالت (إليك) في رضا :

« فكر في هذا يا (سالى) .. إنها أسرة لم تناسب
قط أى بيت غير ملكى فى أوربا .. سيجلس أحفادنا
على عروش ! »

« فى حياتك يا (إليك) ! ويحملون الصولجانات
أيضا ، بطريقة طبيعية كما أحمل أنا عصا الحديقة ..
ومن الآخر ؟ »

« سموه (سيكزموند سيجفريد لانفيلد
شفارتزبرج بلونفورست) دوق (كاتزنيايمر) .. »
« لا ! أنت لا تعفين هذا .. »

« بل هو حقيقى كما أجلس هنا أمامك .. »
فاض به : فصاح فى طرب :

« إن هذا لا يصدق ! إنه أكثر البيوت عرافة بين
الـ ٣٦٤ إمارة ألمانية قديمة ، ومن الإمارات القليلة
التي ظلت بعد ما قام (بسحارك) بتوحيد ألمانيا ..
لقد انتظرنا طويلا يا (إليك) وتخطمت قلوبنا ، لكن
يعلم الله كم أنا سعيد الآن .. سعيد لك أنت التي قمت
بكل هذا .. ومتى يتم هذا ؟ »

« الأحد القادم .. »

« حسن .. يجب أن يتم بأيهى صورة .. أعرف
أن الملوك يفضلون الزواج Morgantic .. »^(*)

« ولماذا يسمونه هكذا ؟ »

« لا أعرف .. لكنهم يصرون عليه .. »

(*) Morgantic هو الزواج الذي يتم بين فرد من الأسرة
المالكة وفرد من عامة الشعب ، وبالتالي لا تترتب للطرفين الثانى
أية حقوق ملكية يطالب بها ..

- « إذن منصرف عليه .. سيكون الزواج Morgantic
والأفلا ... »

- « هذا يسوي الأمور .. سيكون أول زواج من
نوعه في أمريكا .. »

وغرق الزوجان في الأحلام ، وترتيب هذا الزواج .

★ ★ ★

الفصل الثامن ..

لمدة ثلاثة أيام مشى الزوجان في الهواء ،
ورأساهما فوق السحب .. وراح (سالي) يبيع العسل
بالوزن ويبيع السكر بالياردة ، ويبيع الصابون حين
يشترى أحدهم منه شمعاً .. أما (أليك) فوضعت القطعة
في سلة الغسيل ، وسقت الغيارات المتسخة باللين ..

كان الجميع يتساءل : ماذا حدث لـ (فوستر) ؟

ثم جاءت الأحداث ..

كانت أسهم (أليك) ترتفع باستمرار لمدة يومين ،
وراح السماسرة الوهميون يصرخون فيها :

- « بيعي ! بيعي ! بحق السماء بيعي ! »

وقال لها (سالي) :

- « بيعي ! لا تتركي خطأ الآن ، فأنت تملكين
الأرض وما عليها .. »

لكنها ثبتت إرادتها الحديدية ، وفي اليوم التالي

جاء الانهيار الهائل في البورصة . حين تداعى
(وول ستريت) ، وشوهد المليونيرات يستجدون خبرهم
في الطرقات ..

ثم جاءت مكالمة نها تخبرها .. لقد باع السمامرة
أسهمهم .. وخسر كل سهم خمساً وتسعين نقطة ..

هنا فقط تراجع الرجل فيها ، واستردت المرأة
السيطرة .. أحاطت عنق زوجها وبكت :

« لا تسامحنى .. أنا استحق كل يوم .. أنا السبب ..
نحن الآن معدمون .. لن يتم الزواج وانتهى كل شيء ..
لن تزوج الفتاتين حتى طبيب الأسنان والمحامى .. »

جرى اللوم على لسان (سالى) ، وقال :

« لقد توسلت إليك أن تبغى .. لكنك .. »

ولم يجد الشجاعة كي يزيد تعاستها .. ثم أضاف
فى تعقل :

« نحن لم ننفق مليئاً من إرث عمى .. ما فقدناه
هو الحصاد التخيلى لهذا المستقبل بواسطة حصافتك
المالية التى لا تضاهى .. لدينا ثلاثون ألفاً لم يمسهـا

أحد ، وبالخبرة التى اكتسبتها ، فكرى فيما ستفعلن
خلال عامين .. إن الزوجتين لم تلقيا بل تأجلا .. »

كانت هذه كلمات مباركة ، وكان تأثيرها كهريباً ..

لمعت عينا (أليك) ودمعتا ، وقالت بقلب ممتن :

« الآن وهنا أصرح بأن .. »

هنا قاطع عبارتها قدوم ضيف ..

كان هذا هو مالك ورئيس تحرير جريدة (ساجامور) ،
وكان قد جاء إلى القرية لزيارة جدّه أوشك على
الرحيل من عالمنا ، وكان راغباً فى الجمع بين العمل
والحزن ، لذا قرر أن يزور آل (فوستر) الذين لم يدفعوا
سنة دولارات مطلوبة لتجديد الاشتراك فى جريدته ..

رحباً بالضيف بحرارة ، فهو يعرف كل شيء عن العم
(تليبرى) ، والفرص المتاحة له كي يذهب إلى المقبرة ..

بالطبع لن يسألا أية أسئلة لأن هذا سيدمر الوصية ،
لكنهما قررا أن يحوما حول الموضوع ، لكن رئيس
التحرير الأحق لم يفهم ما يريدان ، وفى النهاية استطاع
الخط أن يقدم لهما ما عجز الفن عن تقديمه ..

قال رئيس التحرير وقد احتاج لاستعمال المجاز في
نقطة من حديثه :

- « إنه صلب مثل (تنبيري فوستر) .. »

فلما رأى ذهول الزوجين ، قال في حرج :

- « لم أقصد ضرراً .. إنها مجرد استعارة .. هل
هو قريب لكما ؟ »

أجاب (سالي) بكل ما استطاع استحضاره من
لامبالاة :

- « لا أعرفه .. لكنني سمعت عنه .. »

استعاد رئيس التحرير رباطة جأشه ، فسأله
(سالي) :

- « هل هو على ما يرام ؟ »

- « لماذا ؟ إنه في القبر منذ خمسة أعوام .. »

ارتجف آل (فوستر) حزناً ، ورغم أن تعبيرهما
بدا كاسرور ، وقال (سالي) :

- « آه .. هذه هي الحياة .. حتى الأترياء لا يفرون ..
لا أحد يهرب .. »

ضحك المحرر وقال :

- « لو كنت تضم (تنبيري) إلى الأترياء فأتنا
لا أوافق .. فليس لديه مليم ، وقد احتاجت المدينة إلى
دفنه على حسابها .. »

تصلب آل (فوستر) لمدة دقيقتين ، وشعروا
بالتبرد ..

- « هل هذا حقيقي ؟ »

- « نعم .. لقد كنت واحداً من منفذي الوصية ، ونم
يكن عنده سوى دراجة يدوية ، وقد تركها لي .. لم
يكن بها عجلة سليمة ونم يكن لها نفق .. لكنها شيء
على كل حال ، وقد كتبت له نعيًا لهذا السبب لكن
حروفه تبعثرت في المطبعة .. »

لم يكن آل (فوستر) يصغيان .. كانا جالسين
بلا حراك برأسين مطرقين ، وبعد ساعة كان رئيس
التحرير قد رحل دون أن يشعرا ..

تبادلا النظرات مرهقين ، ثم بدا يتكلمان بطريقة
خائفة كالأطفال ، كاتا بيدان جملة ثم لا ينهيانها ،

ويسود الصمت ولا يلاحظان أن الجملة لم تتم .. ومن حين لآخر كانا يشعران بأن شيئاً ما حدث لعقليهما .. ثم ينمس كل منهما يد الآخر في حنين مشترك ، كأن كلاً منهما يقول لصاحبه : أنا معك .. لن أتخلي عنك .. سنتحمل الأمر معاً ، وفي مكان ما يوجد الخلاص والنسيان .. في مكان ما يوجد قبر وسلام ، ولن يطول هذا ..

ولمدة عامين عاشا في ظلام عقلى تام واكتئاب دائم ، وندم غامض ..

ثم جاء الخلاص يوماً ، وقرب النهاية ارتفع الظلام عن عقل (سالى) فقال :

- « ثروة عظيمة تم اكتسابها في ظروف فاسدة .. ومفاجأة هي فخ .. لم نجدنا نفعا ، وكانت متعتها محمولة قصيرة ، لكننا من أجلها لفظنا حياتنا البسيطة السعيدة .. فليتعظ منا الآخرون .. »

ورقد صامتاً لحظة بعينين مغمضتين . ثم جاءت سكرة الموت تعصر فؤاده ، وغاب عنه الوعي : فقال مغمغماً :

- « لقد جلب له المال المتاعب فقرر أن ينتقم منا .. نحن اللذين لم نؤذه قط .. ترك لنا ثلاثين ألفاً عالمًا .. بمكر .. أننا سنحاول زيادتها ، فلحطم حياتنا وقتلينا .. وما كان ليتكلف شيئاً لو ترك لنا مبلغاً أكبر يقضى على رغبتنا في الزيادة .. مبلغاً أكبر من الإغراء .. كانت روح أطيب ستقبل هذا ، لكن في هذا الرجل لم تكن روح كريمة .. لاشفقة .. لا .. »

★ ★ ★

أَجَنَّةُ أُم نَارٍ؟

الفصل الأول

.. « أنت تفوهت بكذبة »

.. « أنت تعترفين .. بالحق تعترفين .. أنت قلت
كذبة .. »

★ ★ ★



الفصل الثاني

كانت الأسرة تتكون من أربعة أشخاص :
(مارجريت) وهي أرملة عمرها ستة وثلاثون عاماً ،
و (هينين) ابنتها وهي في السادسة عشرة ، والعمتين
(هانا) و (هستر) وهما عانسان في السابعة والثلاثين
نوعمان ..

وكانت النسوة يعشقن الغناء الصغيرة ، ويرقبن
روحها الحلوة في مرآة وجهها ، وتنتعش أرواحهن في
الإصغاء لها ، ويشعرن كم أن العالم عذب ثرى عادل
في وجودها ..

في داخلهما كانت العمتان عزيزتين لطيفتين ، لكن
بالنسبة لسلوك كانت تربيتهما انصارمة قد جعلتهما
شديدي الحزم ولا أقول قاسيتين ..

كان تأثيرهما على البيت قوياً جداً ، حتى إن الأم
وابنتها قبلتا سلطتهما في رضا وبلا تساؤل ..

لم تكن هناك صدقات ، ولا أخطاء ، ولا قلوب
تحترق في هذا البيت ، ولم يكن في البيت هكذا مكان
لكذب .. لم يكن في بيت كهذا شيء سوى الحقيقة
الصلبة كالمعادن .. الحقيقة التي لا تتين ولا تتهاود ،
وليكن ما يكون ..

وفي يوم - تحت ضغط الظروف - نطخت حسناء
البيت الصغيرة شفيتها بالكذب ، واعترفت بذلك
بالدموع ولوم النفس ..

لا توجد كلمات يمكن أن تصور ذعر العمتين ..
كان السماء فوقهما قد تجعدت ، وانهارت ، والأرض
صارت خرابًا ..

جلستا جنبًا إلى جنب شاهبتى الوجه تتبادلان
النظرات ، وترمقان المتهمة التي ركعت على ركبتيها
أمامهما ، تدفن وجهها في حجر كل منهما وهي تنن
وتبكي وتطلب الرحمة ..

لثمت يد واحدة منهما في تواضع ، فقط لتسحب
اليد كأنما تشعر يا شمنزاز من هاتين الشفتين
الملطختين ، ومن حين لآخر تقول إحداهما :

- « أنت قلت كذبة .. »

وتقول الأخرى :

- « أنت تعترفين .. بالحق تعترفين .. لقد قلت
كذبة .. »

كان الموقف فريدًا لم تمرأ به من قبل ، ولا يصدق ..
ولم تفهماد ولم تعرفا كيف تتعاملان معه ..

وقررت المرأتان أن الطفلة خاطئة يجب أن تؤخذ إلى
أمها التي كانت مريضة لا تدري بما يحدث ، وتوسلت
لهما (هيلين) أن ترحماها وتستترا عارها لأن أمها
لن تتحمل ..

لكن الواجب يسبق كل تضحية ، ومع الواجب يهون
كل شيء .. إن الواجب يسبق كل شيء ولا تهاون فيه ..

كانت العمتان عقيدين في الحق ، وقالتا إن القاتون
يجعل الابن يدفع ديون أبيه ، ويمكن أننعكس هذه
القاعدة .. لهذا من العدل أن تعاني الأم الطيبة لطفلة
آثمة آلام الحزن والعار ، التي هي ثمن كل خطيئة ..

وتحرك الثلاث إلى غرفة المريضة ..

في هذا الوقت كان الطبيب يدنو من البيت .. كان طبيبا بارعا ورجلا طيبا سليم الطوية ، لكن يجب أن تعرفه لمدة عام كي لا تمقته ، ولعامين كي تتعلم كيف تتحملة ، ولثلاثة أعوام كي تعجب به ، ولأربعة أعوام كي تعرف كيف تعيش معه .

إنها عملية تعلم مرهقة بطيئة ، لكن لها نفعها ..

كان ضخم الجثة خشن الصوت له وجه أسد ، وعينان أحياتا ما تكونان عيني قرصان وأحياتا عيني امرأة حسب مزاجه ..

لم يكن يبالي بقواعد اللياقة ، وكان صريحا إلى درجة أن نه رأيا في كل شيء ، وأراؤه جاهزة بمجرد فتح الصنبور .. ولم يكن يبالي ما إذا كانت هذه الآراء تروق للمستمع أم لا ..

كان في شبابه بحارا ، لذا كان هواء البحر المالح يفوح منه ، وكان يؤمن أنه أحسن واحد في المنطقة .. وكان يكافح جهده من أجل ما يعتقد ..

وقد استعمل الكثير من الشتائم في البحر في شبابه ، فلما استقام التزم بقاعدة هي ألا يستعملها إلا فيما ندر ، وحين يتطلب الأمر هذا ..

وكان يحمل روحه على وجهه ، ونديه اهتمام شديد بآل (نستر) وكانوا يعرفون هذا ..

الآن هو ذا يدنو من البيت على مسافة ..

وكانت العمتان والفتاة المتهمة على باب غرفة المريضة ..



الفصل الثالث

وقف الثلاثة أمام الفرائش ، وأدارت الأم وجهها لترفق طفلتها يعنين مغرورقتين بالحنان والحب الأمومي ، وفتحت منجاً ذراعها لها ، لكن العمة (هانا) أبقت الفتاة بعيداً عن حضن أمها وقالت :

« انتظري ! »

وقالت العمة الأخرى بلهجة مؤثرة :

- (هيلين) .. قولي لأباك كل شيء .. اغسلي روحك .. »

وقفت الفتاة مهزومة بانسة ، وتاحت بقصتها حتى النهاية ، ثم صاحت :

« أم يا أماد ! ألن تغفري لي ؟ أنا حزينة جداً .. »
قالت الأم :

« أغفر لك يا بيتي .. هلمني إلى ذراعي وضعي رأسك على صدري ، فلو كنت قلت ألف كلمة .. »

هنا نظف أحدهم حلقه على سبيل التنبيه ، ونظرت العمتان إلى أعلى واتكمتتا في ثوبيهما .. هناك وقف الطبيب ووجهه سحابة رعدية ، ولم تكن الأم وابنتها تعرفان شيئاً عن قدومه ، فظلتا ملتصقتين قلباً بقلب .. وضع الطبيب رأسه على كتفيه ، وأوماً للعمتين فهزعتا نحوه ترتجفان ، فهمس لهما :

- « ألم أقل لكما إن هذه المريضة يجب أن تبعد عن الانفعالات ، فماذا تفعلان هنا ؟ نظفا هذا المكان .. »

وبعد نصف ساعة ظهر في البهو ، ويده حول خصر (هيلين) يداعبها ويقول لها أشياء مضحكة لطيفة ، وكانت قد استعادت تألقها ، فقال لها :

- « الآن يا عزيزتي اذهبي لغرفتك ، وابتنعدي عن أمك .. لكن لحظة .. أخرجي لسانك ! هكذا ! أنت سليمة كالبنديقة .. »

وسمح لها بالانصراف .. ثم اكفهر وجهه ثانية ، وجلس يقول :

- « لقد أحدثتما الكثير من الضرر ، وربما بعض الخير .. نعم .. إن مرض السيدة هو التيفود .. لقد

جعلتماه يعلن عن نفسه بجماعكما ، وهذه خدمة لى ..
لم أكن قبل الآن أعرف ما هو .. »

بالتفعل هبت المرأتان مذعورتين ، فقال :

- « اجلسا .. ماذا تحاولان عمله ؟ »

- « يجب أن تطير ! »

- « لن تفعلنا شيئاً .. لقد قارفتما كثيراً من الأذى
حتى الآن .. فهل تريدان تبديد كل ما لديكما من
الحماقات والجرائم فى يوم واحد ؟ اجلسا ! لو خالفتما
تعليماتى فسأنتزع مخيكمما لو كانت عندكما الأدوات
اللازمة لهذا .. »

جنست المرأتان متضايقتين شاعرتين بالمهانة ،
لكن مضطرتين تحت الضغط ، فأردف الطبيب :

- « كيف جروتما على مخالفة أوامرى ؟ »

نظرت (هستر) إلى (هانا) مناشدة .. فلم تكن
إحدى المرأتين ترغب فى الرقص على هذه الأوركسترا
القاسية ، ثم بدأت (هستر) تبحث فى ثيابها ،
ثم قالت :

- « لم نخالفنا أوامرك بسبب هين .. كان هذا
واجباً ، ومع الواجب ليس لدى المرء خيار .. يجب أن
يؤديه .. لقد كذبت الفتاة .. »

نظر لها الطبيب بضع دقائق مشدوهاً ، ثم انفجر :

- « كذبة ! هل فعلت هذا ؟ فليرحمنى الله .. إننى
أقول مليون كذبة يومياً ، وكل واحد يفعل هذا بما فيه
أنتما .. وهذا هو السبب الذى جعلكما تخالفان أوامرى ؟
هذه حماقة خالصة .. إن هذه الفتاة لا تستطيع أن
تكذب كذبة تؤذى شخصاً وأنت تعرفين هذا جيداً .. »
- « لكنه فى النهاية كذب .. »

- « لعمر الله لم أسمع حماقة كهذه .. ألا تعرفين
التفارق بين كذبة وأخرى ؟ »

ضمت (هانا) شفيتها كالملزمة ، وقالت :

- « كل الأكاذيب خطايا .. »

تململ الرجل نافذ الصبر ، وقال :

- « ألم تقولنى كذبة قط لحماية شخص من أذى
أو غار ؟ »

- « نعم .. »

- « ولا حتى لحماية صديق ؟ »

- « نعم .. »

- « ولا أعزُّ صديق ؟ »

- « نعم .. ولا حتى لأتقذ حياته .. »

- « ولا حتى لأتقاذ روحه ؟ »

- « ولا روحه .. »

بعد صمت طال ، قال الطبيب :

- « أسألكما معاً : لماذا ؟ »

- « لأن أية كذبة خطيئة ثمنها فقدان أرواحنا ..

وخاصة لو متنا قبل أن نتوب .. »

نهض واتجه للباب ، وعند العتبة استدار وقال :

- « أصلحاً نفسيكما .. تخلصا من هذا الإخلاص

الرخيص الأتاني رغبة في إتقاذ روحكما التافهتين ..

أنقذا روحكما بالطريق الصحيح وإلا فلن تخسرا شيئاً

يفقدانهما .. »

وقفت المرأتان شاعرتين بالانسحاق والمهانة ..

لقد أوديتا في الصميم .. وأدركتا أنهما لن تسامحا

على هذه الكلمات أبداً ..

★ ★ ★

بدأت المرأتان تقلقان على ابنة أخيهما الطيفة
والمرض الذي أصابها مؤخراً ، وأرادتا أن تساعدا
البائسة وتريحها ..

قالت (هستر) دامعة :

- « سنساعدها .. لا توجد ممرضتان مثلتنا ..

لا ممرضة تقف مثلتنا على فراش المريض حتى تسقط

وتموت ، والله نعم أننا سنفعل .. إن الطبيب يعرفنا

جيداً .. لن يجرق على إحضار ممرضة أخرى .. »

قالت (هانا) من وراء الضباب الذي غلف عيوناتها :

- « يجرق ؟ إنه يجرق على كل شيء هذا الشيطان .. »

- « إنه ذكي ولن يفكر في شيء كهذا .. »

جاء الطبيب فقال :

- « إن (مارجريت) مريضة .. ستسوء حالتها قبل

أن تتحسن وعلى واحدة منكما أن تظل معها طيلة

الوقت .. إن (هيلين) كذلك مريضة بالمرض ذاته .. »

تبادلت العمات النظرات ، ثم صاحت (هستر)

مذهولة :

- « كيف هذا ؟ لقد قلت منذ ساعات إنها سليمة كالبنقة .. »

أجاب في هدوء :

- « كنت أكذب .. »

نظرت له (هانا) في الشمئزاز ، وقالت :

- « كيف تقدم اعترافاً كهذا وأنت تعرف مقتنا لكل أنواع الكذب ... »

- « صبه ! أنت جاهلة كائقطط .. كياقي البثور الأخلاقية تكذبين من الصباح إلى المساء ولا تعترفين بهذا .. وتشمخين بأنفك القديسين باعتبارك لا تقولين إلا الحقائق .. لقد قلت للطفلة كذبة كريمة كي أحصياها من خيالها الذي كان سيجعلها تموت بالحمى خلال ساعة .. هلما .. هل كنتما ستأخذان الطفلة إلى فراش أمها لو عرفتما أنني قادم ؟ »

صمتت المرأتان ولم تتكلما ، فأردف :

- كنتما ستمتنعان عن ذلك ، ولو جئت بعد هذا المشهد وسألتكما عن سبب توتر الأم للذمتما بالصمت ..

وهذه كذبة .. كذبة صامتة لكنها مؤذية .. هكذا ترين أنك لن تكذبي يا (هستر) لإنقاذ روح أعز صديقة لك ، نكنك كنت متكذبين لتجنب مشاق الاعتراف بحقيقة مريرة .. »

ثم ودعهما وانصرف ..

* * *

وعند الظهيرة ازدادت حالة (هيلين) الطفلة سوءاً ، وسألت الأم عنها ، فشجبت (هستر) ولم تخرج الكلمات من فمها .. هنا شحب وجه الأم بدوره وشهقت :

- « آه .. رباة ! هل هي مريضة ؟ »

هنا تمرق قلب العمة المعذبة ، وقالت :

- « لا .. لا .. إنها على ما يرام .. »

بدا السرور على المرأة وقيلت العدة ..

وفيما بعد حكّت (هستر) القصة لأختها ، فقابلتها بنظرة لائمة وقالت :

- « كانت هذه كذبة يا أختاه .. »

- « آه يا (هانا) .. كانت خطيئة لكنى لم أجد

بوسعى شيئا .. »

- « لا يهمنى .. كانت كذبة .. »

- « أعرف هذا .. لكن لو تكرّر الأمر لفعلت الشيء

ذاته .. »

الفصل الرابع

بعد اثني عشر يوماً كانت الأم وابنتها في قبضة مرض مخيف .. ولم يعد سوى القليل من الأمل . وكانت العمتان صاحبتين مرهقتين لكنهما لم تتخليا عن عنهما . وكان قلباهما محطمين من أجل البائستين .. وظيفة هذه الفترة كانت الأم تنوق بشدة إلى الطفلة ، وحين عرفت الأم أن مرضها هو التيفود أصابها الذعر ، وأرادت أن تتأكد من أن الطفلة لم تصب بالعدوى في جلسة الاعتراف ..

أخبرتها (هستر) أن الطفلة سليمة تماماً كما قال الطبيب ، وضائق هذا (هستر) تكن فرحة الأم جعلتها تشعر بالرضا .. صحيح أن بعض الخجل غلبها لكن ليس إلى حد أن تتمنى لو لم تفعل ..

قالت المرأة إنها ستحمل بعد طفلتها عنها ، لأنها تفضل الموت على أن تخاطر بحياة الطفلة ..

- « إذن سأأخذ مكانك مع الأم غدا .. سأخبرها بالحقيقة .. »

وفي الصباح كان لديها تقرير مروع تتقدمه لأم لكنها تماسكت ، وحين عادت كانت (هستر) تنتظرها شاحبة الوجه ترتجف ..

وفي الزدهة قالت (هانا) وعيناها تسبحان في الدموع :

- « ليسامحني الله .. قلت لها إن الطفلة بخير ! »

- « قليبارك الله يا (هانا) ! »

ومن هذا الحين عرفت العمتان مدى قوتهما ، واستسلمتا في تواضع لضروريات الموقف ، وفي كل يوم كانتا تقولان كذبة الصباح ، ثم تستغفران الله في المساء ..

وفي كل يوم كان نبراس البيت يتهاوى شيئا فشيئا ، بينما العمتان ترسمان نضارتهما لأم ، ويدمس قلبهما سرورها ..

وفي الأيام الأولى كانت الفتاة تكتب رسائل لأمها

أخفت فيها شأن مرضها ، وكانت الأم تحتضن هذه وتلتئمها مرارا ، وتداريها تحت وسادتها ..

وبعد أيام وهن العقل وتراخت اليد فلم تعد الفتاة قادرة على كتابة شيء ، ودارت العمتان فيما تقولانه لأم ..
إن أعذارهما تنفذ بسرعة ..

★ ★ ★

الفصل الخامس

بعد قليل راحت العمتان تمارسان عملاً مرهقاً شاقاً
في غرفة (هياين) .. لقد حاولتا - بجدية وتصميم -
بأناملها الجافة أن تزيقا الرسالة المظنوبة .. فشنتا
مراراً لكن أداءهما بدأ يتحسن ..

كانت دموعهما تسقط على الورقة فتلوثها ، وأحياناً
كانت كلمة غير محسوبة تجعل الرسالة خطيرة ،
فتبدآن من جديد ...

في النهاية حصلت (هانا) الرسالة إلى الأم ، التي
راحت تلتهم الكلمات الثمينة مراراً ، وقالت :

- « آه لو كان يوسعى أن ألتفتها أو أخذها بين
ذراعي ! »

قالت النعمة :

- « كم تأثرت حين سمعتها تغني أغنية (لوخ
لوموند) .. لقد حركت مشاعري .. إن غناء الشباب
يحرك العواطف .. »



في النهاية حصلت (هانا) الرسالة إلى الأم ، التي راحت تلتهم
الكلمات الثمينة مراراً ؟

وغابت ما بين خيال أليم إلى آخر ، فرطبت العمة
(هانا) الشفتين الجافتين ، ومسحت الحاجبين
الساخنين ، وهي تشكر الله على أن الأم سعيدة لا تعرف
ما يدور ..

* * *

- « أحسبني لن أعيش لأراها ثانية .. »

تأثرت العمة فقالت :

- « لا تقولي هذا .. أرجوك .. »

- « لا تبكي .. إني سأعيش .. سأحاول لو استطعت .. »

ماذا تفعل من دوني ؟ هل تتكلم على كثيرًا ؟

- « نعم .. كثيرًا جدًا .. »

- « أعرف هذا .. إن الزوجة المدللة تعرف أنها

محبوبة ، لكنها تطالب زوجها كل يوم بأن يقول هذا ،

لمجرد متعة سماعة .. أرى (هيلين) استعملت القلم

الحبر هذا المرة .. هذا أفضل .. إن الرصاص يبهت

بسرعة ولنسوف أدم على ذلك .. »

وانصرفت العمة (هانا) مثقلة القلب لتري الفتاة ..

كانت في غيبوبة تامة ، تنظر لمن حولها بعينين

مفتوحتين لا تريان ، ومن شفتيها كانت كلمات مضطربة

تخرج :

- « هل أنت لست أمي ؟ أنا أريدها .. كانت هنا منذ

دقيقة هل ستعود سريعًا ؟ هل ستعود الآن ؟ كل شيء

يدور ويدور من حولي آه يارأسى ! »

الفصل السادس

في كل يوم كانت الطفلة تنحدر أسرع نحو القبر ، وأخبار العجوزين المملقة عن صحتها تنقل لأُمها السعيدة التي دنت نهايتها أيضًا ، واستمرت الرسائل المزيفة وكان قلياهاما يتزفان وهما يريان لهفة الأم ..

في النهاية جاء ذلك الصديق الطيف .. جالب السلام والراحة للجميع .. وكانت الإضاءة خافتة والفجر يدنو ، حين عبرت الردهة أطياف صامئة متجهة إلى غرفة (هيلين) ، ووقفت حول فراشها ..

أما الفتاة فقد انطلق جفناها ، والملاءة على صدرها تعلو وتهبط بوهن ، بينما كانت شهقة أو دمعة تحطم الصمت ، وكانت الفكرة المسيطر على الأذهان هي حسرة هذا الموت .. الرحيل إلى الظلام العظيم بينما الأم ليست هنا لتخفف الآلام وتبارك ..

تحركت يسدا الطفلة باحثة عن شيء ، فضمتها (هستر) إلى صدرها باكية ، وظهر ضوء غامر على

وجه الفتاة لأنها حسبت انراعين تراعى أمها ، وذهبت لنهايتها سعيدة ..

وبعد ساعتين ذهبت (هستر) إلى غرفة الأم ، فسألتها :

- « كيف حال (هيلين) ؟ »

- « هي بخير .. »

* * *

قرأت الأم الرسالة : وهمست :

- « يا للطفلة المسكينة ! كيف تتحمل حين تعرف ؟
إنها لا تشك في شيء .. »

- « إنها تعتقد أنك ستتعافين .. »

- « كم أنت طيبة أيها العمّة (هستر) ! دعيني
أقبلك عنها .. »

ضعى القبلة على ثغرها وقولى إن قلب أمها فيها ..
وبعد ساعة - ودموعها تسيل - أدت (هستر)
بهمتها العسيرة ..

★ ★ ★

الفصل السابع

عند الظهر جهزوا المتوفاة ، وفى اتابوت رقدت
الشابة وعلى وجهها سلام عظيم .. وجاءت (هستر)
راجفة لتقول للموجودين :

- « إنها تطيب منى ورقة ! »

ابيض وجه (هانا) لأنها لم تتوقع هذا .. لقد ظنت
أن الخدمة انتهت .. تبادلت المرأتان النظرات ، ثم
قالت (هستر) :

- « لا مفر .. لا بد من الورقة وإلا سنشك :

- « وستعرف .. »

وهكذا كتبنا رسالة جديدة حملتها (هستر) ، يقول
سطرها الأخير :

« عزيزتى ... »

« سنكون معاً ثانية .. أليس هذا خيراً طيباً ؟
الجميع يقول هذا .. »

الفصل الثامن

دوى صوت جرس عبر الريح ، فتساءلت الأم :

- « الناقوس يقرع أينها العمّة (هانا) ! روح مسكينة قد رحلت عما سأفعل أنا .. لن نتركها تنساني ؟ »

- « لا .. لن تنسى .. »

- « هل تسمعان هذه الأقدام فى الردهة ؟ »

- « إنهم مجتمعون من أجل (هينين) المسكينة حبيسة البيت .. جاعوا ليسمعوها بعض الموسيقى التى تحبها ، وظننا أنك لن تتضايقى .. »

- « لا .. لا .. أعطياها كل ما تريده ! »

وبعد فترة صمت قالت :

- « كم أن هذا لطيف ! إنه أرغنها .. هل تعزفه بنفسها ؟ هذه المقطوعة حزينة جميلة .. إنها تفتح أبواب السماء لى ! لو استطعت أن أموت الآن ! »

وحين انتهى اللحن ، استراحت روح أخرى من عذاب الحصى ، وقالت الأختان وهما تنودان حول جثة الأم :

- « من الجميل أنها لم تعرف قط .. »

عند منتصف الليل جلستا تبكيان ..

رأتا شخصاً باهر الجمال يتألق تألقاً غير أرضى ، دخل عليهما وقال :

- « لكذابين موضع فى جهنم يحترقون فى نيرانه للأبد .. فلتندما ! »

سقطت العجوزان على ركبتيهما أمامه ، وانحنى رأساهما ، لكن لسانيهما التصقا بسقفى فميهما ، وأصابهما الخرس ..

وأخيراً قالت إحداهما :

- « إن خطيئتنا عظيمة تجلثنا بالعار .. نحن

مخلوقات نعمة تعرف ضعفها الإنساني ، ولو خضنا
تلك السيل الوعرة ثائية فلسوف يكون الفشل
نصيبنا .. »

ورفعتا رأسيهما في تضرع ، لأن الشخص قد ذهب ،
وإن كان قبل ذهابه قد همس لهما بمصيرهما ..

★ ★ ★

أهي الجنة أم النار ؟

إدوارد ميلز وجورج بت ..

كانا متباعدين في القرابة .. ربما كانا ولدي عم من الدرجة الخامسة أو شيناً كهذا ، وكانا طفلين يتيمين ، لذا تبناهما آل (برامز) اللذان لم يرزقا بأطفال .. كان آل (برامز) يقولان لهما :

« كونا مخلصين رزينين منتجين .. وراعيًا الآخرين لتنجح في الحياة »

وكان الطفلان قد سمعا هذا آلاف المرات حتى فهماه ، وكان يوسعهما أن يردداه قبل أن يتعلما الصلاة .. لقد طبعت هذه العبارة على باب غرفة الأطفال ، وكانت أول عبارة تعلمها قراءتها .. وصارت هذه هي قاعدة حياة (إدوارد ميلز) ..

أحياناً كان الزوجان (برامز) يغيران العبارة قليلاً فيقولان :

« كونا مخلصين نقيين منتجين .. ولن تحتاجا إلى أصدقاء .. »

كان الطفل (ميلز) مريحاً لكل من حوله ، وحين كان

يطلب الحلوى ولا ينالها يصغى إلى العقل ، أما الطفل (بت) فكان يبكي حتى يحصل على الحلوى بأي ثمن .. كان الطفل (ميلز) يعنى بلعبه أما الطفل (بت) فكان يدمرها في وقت قصير ، ثم يتحول إلى جحيم حتى إتهم - كي يسود السلام المنزل - كتبوا يقتعون (ميلز) الصغير بالتخلي عن لعبه لأخيه ..

وحين كبر الطفلان صار (جورج بت) مكلفاً .. لقد كان قليل الاهتمام بشيائه ، لهذا كان يرتدى ثياباً جديدة دائماً ، بينما لم تكن هذه هي الحالة مع (إدوارد ميلز) ..

ونما الطفلان سريعاً .. وفضل (إدوارد) مريحاً ، بينما كان (جورج) هماً متزايداً ، وكان يكفى أن تقول لـ (إدوارد) :

« كنت أفضل ألا تفعل هذا .. »

سواء كنت تتحدث عن السباحة أو الفزهة أو جمع الفراولة أو الذهاب إلى السيرك . وكل الأشياء التي يجبها الصبية ..

كانت هذه الإجابة كافية لـ (إدوارد) لكن نيس لـ (جورج) ، الذي يصراً يعنف على ما يريد ، وبالنظر

لم يظفر طفل آخر بكل نزعات السباحة وجمع الفراولة
والذهاب إلى السيرك . ولم يفز طفل آخر بوقت أمتع ..
وكان آل (برامز) لا يسمحان للطفلين بالسهر بعد
التاسعة .. فكان (إدوارد) يبقى في الفراش . لكن
(جورج) كان يخرج من النافذة وينهز حتى منتصف
الليل ..

وكان مستحيلاً إقناع (جورج) بالتخلي عن عاداته
السيدة ، إلا بالكثير من التفاح والبلى ..

لم يحتاج (إدوارد) إلى جهد كبير في تربيته ، لأنه كان
طبيعياً يعتبره الجميع ممتازاً ، لكن آل (برامز) عاتوا
كثيراً في تربية (جورج) والدموع في عينيها ..

تدريجياً كبر الطفلان إلى سن العمل .. وأرسلهما
الأبوان لتعلم حرفة .. وقد ذهب (إدوارد) راضياً
لكن (جورج) كان غاضباً ..

عمل (إدوارد) بجد وإخلاص وكفاً عن أن يكون
عبئاً مالياً على آل (برامز) ؛ لكن (جورج) قرأ ،
وكنف مسر (برامز) كثيراً من المال والجهد كي
يجده .. لكنه هرب ثانية .. ثم هرب ثالثة ومعه بعض

الأشياء الثمينة ، وعانى مسر (برامز) كثيراً ،
بالإضافة إلى محاولة إقناع المعلم بألا يرسل الصبي
إلى الشرطة بتهمة السرقة ..

وواصل (جورج) مهمة تحطيم القلوب العجوزين
الذين يحاولون أن يحمياه من الخراب ..

وكان (إدوارد) منذ طفولته موثقاً بمدارس الأخذ ،
وجمع التبرعات للفقراء ، وبرامج منع التدخين ومنع
الشتائم البذيئة ، وكل الجمعيات المهمة بمعاونة البشر ..
لكن هذا لم يثر اهتمام أحد لأن هذا هو (الاتجاه
الطبيعي) للإنسان ..

وفي النهاية مات آل (برامز) ، وأوصيا في
أوصية بفخرهما وحبهما لـ (إدوارد) وبعقار صغير
لـ (جورج) لأنه كان يحتاج إليه ، بينما (إدوارد)
لا يحتاج إلى شيء كهذا لأن العناية السماوية
ترعاه ..

واشترط العجوزان أن يكون (إدوارد) شريكاً
لـ (جورج) ، وإلا ذهب العقار إلى مؤسسة خيرية
اسمها (جمعية أصدقاء المساجين) ..

وتوسل الزوجان ^{لهي} (إدوارد) أن يأخذ مكانهما
في النهاية بـ (جورج) وحمايته من نفسه .
وبتواضع أذعن (إدوارد) ..

ثم يكن (جورج) شريكاً مفيداً .. كان سكيراً يعلن
جلده وعينه تلك الحقيقة غير المسارة في كل لحظة ..

وكان (إدوارد) يعشق فتاة حسناء ، وأحباً بعضهما
بإخلاص ، لكن (جورج) راح يلاحقها دامعاً متوسلاً ،
وفي النهاية ذهبت دامعة العنين إلى (إدوارد) وقالت
إن واجبها المقدس واضح أمامها ، ولن تدع رغبتها
الأنثوية تتدخل .. يجب أن تزوج (جورج) المسكين
وتصلحه .. لسوف يحطم هذا قلبها ، لكن الواجب هو
الواجب ..

وهكذا تزوجت (جورج) وتحطم قلبها وقلب
(إدوارد) ..

وما إن شفى من آلامه حتى تزوج (إدوارد) بدورده ..
وظفرت الأسرتان بأطفال ، وحاولت (ماري) جهدها
كي تصلح زوجها لكن هذا كان عسيراً ، وكافح طبيون
كثيرون من أجل (جورج) ، لكنه اعتبر هذه الجهود
حقه وواجبهم ..

واتغمس في القمار حتى تراكت عليه الديون ، وذات
صباح استولت الشرطة على القشركة ، ووجد ابننا العم
نفسيهما دون ملهم واحد ..

كانت الأوقات عصيبة ، واضطر (إدوارد) إلى أن
يعيش مع أسرته في غرفة على السطح ، وراح
يجوب الشوارع بحثاً عن عمل ..

وأدهشه كم أن وجهه لم يعد يلقى أي ترحيب ،
وكيف أن اهتمام الناس به قد تبخر ..

ابتلع غمه ، وفي النهاية وجد عملاً في حصل
القرميد على كتفه في (غلق) لأعمال البناء ..

إلا أنه ظل محافظاً على التزامه نحو المؤسسات
الأخلاقية التي كان عضواً بها ..

لكن (جورج) كاد يموت من فرط الاهتمام به .. لقد
وجده ذات صباح ثملاً غارقاً في المزراب ، فأنقذته
إحدى سيدات الجمعيات الخيرية ، واشتركت له في
الجمعية ، وجعلته محترم المظهر ، ووجدت له وظيفة ..
ونشرت الصحف هذا الموضوع ..

واهتم الرأي العام بأمر البنائس ، وجاء كثيرون

يساعدونه كي يصلح ذاته ، ولمدة شهرين ظن طبيب
النكر ، ثم سقط ثملاً في المزراب مرة أخرى .. من ثم
ساد الحزن والغم ، إلا أن الأخوة النبلاء أنقذوه ثانية ،
ونظفوه وأطعموه وطربوا لموسيقا ندمه الحزينة ..

هكذا غرقت البلدة في الدموع السعيدة لأن جهودها
نجحت في تأهيل الوحش المسكين .. وأقيم احتفال كبير ،
وبعد بعض الخطب المؤثرة قال رئيس الجلسة في شجن :
- « سنرى مشهداً لن يراه كثيرون هنا بعيون جافة
من الدمع .. »

وتقدم (جورج) تحرسه النساء إلى المصلحة ، حيث
بدأت عملية الاكتتاب لمساعدته فصقق الجميع ، وبكى
الجميع سروراً ..

وصار (جورج) بطل المدينة ونجمها ..

صحيح أنه كان يعود لتزلزل كلما مرت ثلاثة أشهر ،
لكن إنقاذه كان يتم في كل مرة ..

في النهاية راح يطوف البلاد محاضراً ، يحكى للناس
قصته مع التوبة ، وازدادت ثروته ..

كان الناس يتقنون به حتى إنه استطاع استخدام اسم
مواطن معروف كي يسحب مبلغاً ضخماً من المصرف ،
وتكاثرت الضغوط من أجل تخفيف الحكم عليه ،
وذهب إلى السجن ثم خرج منه بعد عام ، لتلقاه
(جمعية أصدقاء المساجين) على الباب براتب
محترم ..

وكان (إدوارد) قد تقدم لهذه الجمعية من قبل
طالباً المساعدة ، لكن قضيته انتهت بسؤال واحد :
- « هل دخلت السجن من قبل ؟ »

وكان (إدوارد) قد صار صرافاً لمصرف البلدة ،
لكنه لم ينق (جورج) قط .. (جورج) الذي اعتاد
انغياب كثيراً عن البلدة لأسباب غامضة ..

وفي ذات مساء مطير دخل لصوص متثمنون
مسلحون إلى المصرف ، فوجدوا (إدوارد) وحده
هناك .. أمروه أن يعطيهم الأرقام السرية للخزنة ..
فرفض .. هددوا حياته .. فقال لهم إن رؤسائه وثقوا
به وهو لن يخون هذه الثقة ، ويمكنهم قتله إذا
أرادوا ..

لهذا فتنه النصوص ..

وراج المخبرون يحققون في الحادث ، واتضح
أن المتهم الأساسي هو (جورج بت) ..

سادت الشفقة على أرملة الصراف الميت وأطفاله
اليتامى ، وتوسلت الجريدة المحلية لروساء المصارف
أن يدعوا أسرته التي صارت بلا عائل .. وتم تجميع
تحو خمسمائة دولار بمتوسط ٣/١ دولار لكل مصرف
من مصارف الاتحاد ..

أما المصرف الذي يعمل به الصراف ، فقد أعرب
عن امتنانه للشهيد ، بأن أعلن أن حسابات الرجل لم
تكن دقيقة تماما ، وأن هناك اختلافا في العهدة ،
ولربما ضرب نفسه بنفسه كي يداري ما اقترقه .

تم تقديم (جورج) للمحاكمة ، وبدا أن الجميع نسي
الأرملة واليتامى في قلقهم على (جورج) المسكين ..
لكن كل المال والنقود لم ينجحوا في تبرئته ، وتم الحكم
عليه بالإعدام ..

أرهقت طلبات العفو الحاكم ، تحملها إليه بنات
صغيرات وعوانس عجوزات حزينات ، وأرامل ويتامى ..
لكن لا .. لم يرضخ الحاكم لهذا ..

وامتلأت زناينة (جورج) بالحسناوات والزهور
والدموع والثرانيم .. حتى جاء يوم المشنقة ..

وتم نقل جثة (جورج) في موكب فخيم في سيارة
سواء ، أمام جمهور باك من أفضل أبناء المنطقة ،
وفي كل يوم كانت زهور جديدة توضع على قبره ..
وعلى قبره حفرت هذه الكلمات :

« لقد قاتل كما يجب أن يكون .. »

وعلى قبر الصراف شجاع نقشت هذه الكلمات :

« كن نقيًا مخلصًا رزينًا منتجًا ، ولن .. »

ولا يعرف أحد مصير باقي العبارة .. لكن هكذا
وجدوها ..

تعيش أسرة الصراف في ظروف شنيعة الآن ..
ويقال .. لكن لا يهم .. هناك أناس طيبون بهمهم الأمر
عمل شجاع كعمله دون جائزة .. وقد قاموا بجمع
٤٢٠٠ دولار وبنوا كنيسة لذكراه ..

خادم الجنرال (واشنطن) (١٠)

إن الجزء العثير من حياة هذا الرجل الشهير قد بدأ بعد موته . ومعنى هذا أن التفاصيل المهمة في سيرته ظهرت بعد أول موت له ..

لم يسمع عنه أحد حتى تلك اللحظة ، ولكن من لاحظتها لم تكف قط عن السماع عنه ، كانت مهنته مرموقة جداً وأظن أن قصة حياته ستكون إضافة مهمة لأدب السير الأمريكى ، لهذا قمت بجمع هذه المادة من مصادر أصلية موثوق بها ، وهأنذا أقدمها للعالم ..

لقد استبعدت من هذه المعلومات كل ما هو مشكوك فيه ، وهدفى هو أن أقدم هذه السيرة للمدارس لتربية شباب بلادى ..

(*) ليست هذه قصة بالضبط بل هى مقال ساخر يتكلم على الصحف الشهيرة فى أمريكا وقتها . وللكاتب أعمال كثيرة مماثلة هى خليط بين القصة والمقال الساخر ..

كان اسم الخادم الشهير لجنرال (واشنطن) هو (جورج) ، وقد خدم سيده لمدة نصف قرن وفاز بثقلته ومودته ، وبعد هذا كان واجبه انمؤسف هو أن يوصل سيده المحبوب إلى القبر فى (بوتوماك) ..

وبعد عشر سنوات - عام ١٨٠٩ - مات هو نفسه ، مقعناً بالسنين والشرف ، وتعاه كل من عرفوه ..

تقول جريدة (يوستون جازيت) عن هذا الحدث :

(جورج) الخادم الأثير لـ (واشنطن) قد مات فى (رتشموند) يوم الثلاثاء الماضى عن خمسة وتسعين عاماً ، وهى سن ناضجة . لم يكن ثمة وهن فى قواه العقلية ، وقد ظل فكره متماسكاً حتى قيل موته ببضع دقائق . لقد كان موجوداً حين انتخب (واشنطن) رئيساً للجمهورية للمرة الثانية ، وكذلك فى جنازته . ويذكر كل الأحداث المجيدة المرتبطة به .

من هذا التاريخ لم نسمع شيئاً عن الخادم العظيم ، حتى ١٨٢٥ حين مات ثانية .. خرجت جريدة فى (فيلادلفيا) تقول :

فى (ماكون توفى الأسبوع الماضى رجل زنجى يدعى
(جورج) . وكان هذا الفقيد هو خادم (جورج واشنطن)
المفضل . وقد مات بفعل الشيخوخة عن ٩٥ عامًا . وقبل
بكامل قدراته العقلية حتى وفاته وكان يوسعه أن يتذكر
انتخاب (واشنطن) رئيساً لفترة ثانية ، ودفنه وجنزهته ،
واستسلام (كورنواليس) ومعركة (ترمتون) وأحزان
وادي (قروج) ..
وقد ذهب الفقيد إلى القبر مع كل آل (ماكون) .

وفى الرابع من يوليو ١٨٣٠ وفى ١٨٣٤ و ١٨٣٦
تم نشر الخبر ذاته تقريباً فى موضع الصدارة من
صحف أخرى ..

وفى نوفمبر ١٨٤٠ مات الرجل ثالثة ، وكتبت جريدة
(سانت لويس ريبابليكان) فى الخامس والعشرين من
الشهر :

أثر فقير آخر من آثار الثورة قدمه

توفى أمس فى هذه المدينة (جورج) الخادم الأثير
لـ (جورج واشنطن) عن عمر ٩٥ عامًا ، وكان



من هذا التاريخ لم نسمع شيئاً عن الخادم العظيم ، حتى ١٨٢٥
حين مات ثالثة ..

يتمتع بذاكرة قوية ، وكان يذكر الانتخاب الأول والثاني
لـ (واشنطن) واستسلام (كورنواليس) وموقعة
(ترمتون) وسعادة جيش الوطنيين في وادي (فروج)
وإعلان الاستقلال وأشياء أخرى كثيرة ، إن قليلاً من
البعض يستدعي موتهم الحزن الذي سببه موت هذا
الزنجي المسمن ، وكانت جنازته عظيمة .

وفي السنوات العشر التالية بدأت أخبار وفاة جديدة
لترجل تظهر في أرجاء القطر ، وظلت تظهر في مواضع
مهمة من صحف عديدة ، وبإنجاح تام
إلا أنه في خريف عام ١٨٥٥ مات الرجل مرة
أخرى ، وتقول صحف (كاليفورنيا) :

بطل عجوز قد مات

مات في (داتشفلات) (جورج) خادم الجنرال
(واشنطن) عن عمر خمسة وتسعين عاماً ، إن ذاكرته
لم تخذله حتى النهاية ، وكان يستطيع أن يتذكر أول
وثاني انتخاب لـ (واشنطن) وموقعة (كورنواليس)
و (باتكرهيل) وإعلان الاستقلال وهزيمة (برادوك) .
ويقال إن عشرة آلاف مواطن حضروا الجنازة ..

أما آخر مرة مات فيها (جورج) فكانت عام
١٨٦٤ . وحتى أسمع العكس أفترض أنه مات حقاً في
تلك المرة ، وقد كتبت جريدة (متشيجان) عن هذه
الأحداث الأسيفة :

عز آخر من رموز الثورة قد ذهب

(جورج) خادم (واشنطن) قد توفي في (بترويت)
الأسبوع الماضي . عن سن خمسة وتسعين عاماً ، ولم
تضطرب ذاكرته قط حتى النهاية ، وكان يذكر أول وثاني
انتخاب لـ (واشنطن) واستسلام (كورنواليس)
وموقعة (ترمتون) وإعلان الاستقلال وهزيمة
(برادوك) ، وإلقاء صناديق النشاي في خليج
(بوسطن) ، وهبوط الحجاج .
نقد مات محترماً ، ومشى في جنازته عدد هائل من
المواطنين .

نقد ولي الخادم المخلص العظيم .. لن نراه ثانية حتى
يعود .. لقد انتهى من مهنة الصوت التي يمارسها
بروعة ، وهو الآن ينام في سلام كما ينام كل من
استحق راحته ..

لقد كان في كل الأحوال رجلاً مرموقاً . وكنا عايشين أكثر كلما ازدادت ذاكرته قوة وشمولاً ، ولو مات ثانية فلا بد أنه سيتذكر في هذه المرة اكتشاف أمريكا ذاتها .. اعتقد أن هذه السيرة التي قدمتها له كاملة تماماً ، برغم أنني أفترض أنه مات مرة أو مرتين في أماكن غامضة فشلت الصحافة في معرفتها ..

وكل ما أجده في ملاحظاتي عن موته هو أن الرجل كان مضراً - في كل المقالات - على أن يموت في الخامسة والتسعين .. لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً .. ربما فعله مرة أو مرتين ، لكنه لا يستطيع أن يظل في سن خمسة وتسعين للأبد .. من المفترض أن يكون عمره ١٥١ سنة حين مات آخر مرة .. لكن سنه لم تمش بنفس معدل ذاكرته ..

لقد تذكر - حين مات آخر مرة - هبوط الحجاج الذي حدث سنة ١٦٢٠ .. لو حدث هذا وهو في سن العشرين فمعنى هذا أن عمره كان ٢٦٠ سنة حين ترك الحياة نهائياً ..

لقد انتظرت كثيراً لأرى إن كان سيموت ثانية ، حتى أقدم سيرة حياته للأمة الشكلى ..

■ ملحوظة : أرى من الأوراق أنه مات مرة أخرى في (أركنساس) ، ومعنى هذا أن ذلك المخادع مات ست مرات ، وفي كل مرة في مكان جديد .. لقد كف الآن عن أن يكون موضوعاً جديداً .. لقد ولى سحره .. لقد تعب منه الناس .. فدعوه يرقد ..

إن هذا الزوجي حسن النية لم يكلف ستة مجتمعات تكاليف دفنه ، ويجعل عدة عشرات من الألوف يتبعونه إلى قبره كل مرة ..

دعوه يرقد للأبد الآن ، واجعلوا تلك الصحف تتلقى أكبر توبيخ في حياتها ، وأخبروا العالم أن خادماً (واشنطن) قد مات ثانية !

★ ★ ★

إمام ابن عامر ..

يبدو أن كل الرضع لديهم عادة قبيحة وقحة هي أن يقولوا أشياء ذكية في كل الأحوال ، وخاصة تلك المواقف التي يفترض ألا يقولوا فيها شيئاً على الإطلاق ..

ومن الحقائق المنشورة لهذه الأشياء الذكية ، أن جيل الأطفال الحالي أفضل من البلهاء بقليل ، ولا بد أن آباءهم ليسوا أفضل من أطفالهم إلا بقليل ..

يبدو أنني أتحدث بشيء من الحرارة ، ولا أقول بنوع من الضغينة الذاتية .. ولا أظن أن سبب هذا هو الغيرة لأنني لم أقل شيئاً ذكياً وأنا رضيع .. حاولت مرة أو اثنتين لكنني فشلت ..

ثم يتوقع أبواي أن أقول شيئاً ذكياً لهذا أهملوني مرة ، وضربوني على ردفى باقى المرات ..

لكننى أشعر بقشعريرة ويتجمد دمي ، كلما فكرت فيما عساه كان يحدث لو قلت شيئاً ذكياً مما يقوله

أطفال اليوم وسمعتى أبى .. ولو كان قد سلخنى حياً لبدأ له هذا ليلاً عقابياً نحو شخص أثم كهذا ..

كان رجلاً صارماً غير مبتمس ، يكره كل علامات عدم النضج .. ولو قلت له شيئاً كهذا فيؤكد كان سيدمرنى .. حتماً كان سيفعل إذا أتحت له الفرصة ، لكنها لم تتج له لأننى كنت أملك الحصافة التى تجعلنى أبثع بعض سم (الستركين) أولاً ثم أقول أشياء الذكية ..

إن تاريخ حياتى قد تنطخ فقط بدعاية لفظية واحدة سمعها أبى وبحث عنى فى أربعة أو خمسة متاجر راجياً فى قولى ، ولو كنت ناضجاً وقتها لعذرتة لكنى كنت طفلاً ، ولم أستوعب شقائه مما حدث ..

ذات مرة قلت بعض هذه (الأشياء الذكية) وكانت تحدث انفجاراً بين أبى وبينى ..

كان أبى وأمى وعمى (أفرايم) وزوجته وأخران ، وكانت المحاورة تدور حول اسم لى .. وكنت على الأرض ألعب بعضاضة مطاطية ، لأننى كنت قد تعبت من قطع أسنانى بأنامل الناس ..

هل لاحظت مدى المعاناة التي تسببها لك محاولة شق أسنانك بعض أنامل المربية ؟ وكيف أنه مرهق أن تحاول شق أسنانك بأصبعك الكبير ؟ بالنسبة لى أشعر أن هذه الأشياء حدثت أمس ..

لكنى أريد عن الموضوع ..

كنت هناك ألعب بعضاضتى ، وأظن أنني نظرت إلى ساعة الحائط فلاحظت أنه خلال ساعة وخمس وعشرين دقيقة سيكون عمرى أسبوعين ، وخطر لى أنني فعلت القليل لى أستحق كل السعادة التي تنتظرني عما قريب ..

قال أبى :

- « إن (أبراهام) اسم جيد .. لقد كان اسم جدى (أبراهام) .. »

وقالت أمى :

- « إنه اسم جيد بالفعل .. ليكون هذا واحداً من أسمائه .. »

قلت :

- « إن (أبراهام) يناسب اسم موثق عقود .. »

قطب أبى وبدأ السرور على أمى ، وقالت عمتى :

- « يا له من طفل عزيز ! »

قال أبى :

- « أن (إيزاك) و (جاكوب) اسمان جيدان .. »

وافقت أمى وقالت :

- « ما من أسماء أفضل ؟ »

قلت :

- « حسن .. هذان اسمان مناسبان لكما أنتما ..

ناوليني (الشخصخة) من فضلك ، فلا يمكن أن أضع العضاضة طينة اليوم .. »

وحتى هذه اللحظة لم ألقى التشجيع الذى ينقاه الأطفال الأذكىاء الآخرون . لقد قطب أبى وبدأ الحزن على أمى ، وبدأ أن عسى يفكر فى أنني ربما تعاديت كثيراً ..

عضضت العضاضة وهشمت (الشخصخة) فوق رأس القط ، لكننى لم أقل شيئاً ..

قال أبى :

- « إن اسم (صمويل) جيد .. »

وضعت ما فى يدي إلى جوار المهد ، حيث ساعده
عمى القضية ولعبة الكلب والجندي القصديرى ، وكل
الأشياء التى اعتدت أن أتفحصها وأأملها وأهشمها
حين أطلب المتعة الكاملة ..

قلت لنفسى إنه لو كانت الأمور ستسوء أكثر فأنا
مستعد ، وبصوت عال قلت :

- « أبى .. لا أستطيع أن أحمل اسم (صمويل) .. »

- « ولماذا يا بنى ؟ »

- « إن لدى نفورا خاصا من هذا الاسم .. »

- « إن رجالا عظيمي الشأن حملوا اسم (صمويل)

يا بنى .. »

- « ما زال على أن أعرف أولهم .. »

ودارت مشادة عنيفة بيننا ، وحين انتهت كنت قد
حملت اسم (صمويل) وضربة قوية ، وبوساطة هذا
الإنعازن هدا غضب أبى ، وتجاوزنا سوء الفهم ، الذى

كان سيوتر علاقتنا للأبد لو أننى تخليت عن التعقل ..

لكن - بعد ما عرفنا هذا الموقف - ماذا كان أبى
سيقول لو قلت شيئا سخيئا من الأشياء التى يقولها
الأطفال الذين عمرهم عامان الآن ؟ فى رأيى كان الأمر
سينتهى بإحدى جرائم قتل الرضع فى أسرنا .

* * *

قصة رجل من (كاليفورنيا) ..

منذ خمسة وثلاثين عامًا كنت أجول في (ستانيزلوز) ، أضل طريقى طيلة اليوم ، وأبعثر ما يملأ القبعات من الغبار هنا وهناك ، متوقعًا في كل لحظة أن أقع على خبطة ثرية لكنى لا أجدها أبدًا ..

كانت المنطقة لذيذة لطيفة صاى بالغابات ، وفي وقت ما كانت مزدحمة ، لكن الناس قد اختفوا الآن وصارت الجنة الخلابة مكانًا منعزلًا .. لقد هجرها الناس بعد حملة التنقيب عن الذهب ..

يومًا ما كانت هنا مدينة مزدحمة لها صحف ومصارف ومطافئ وعمدة .. ثم بعد منها الآن سوى مرج زمردى بلا علامة واحدة على أن حياة كانت هناك ..

سرت قرب الزيف عبر الدروب المترية .. ومن حين لآخر كنت أرى أجمل الأكواخ وأكثرها راحة تلتف حولها الأغصان ، حتى لتختفى الأبواب والنوافذ عن العين

تمامًا .. مما يوحى بأن هذه بيوت هجرها الباحثون عن الذهب منذ أعوام ، ولم يستطيعوا أن يبيعوها أو يمنحوها لأحد ..

ومن حين لآخر كنت ترى أكواخًا خشبية من عهود التنقيب الأولى ، بناها أوائل الباحثين عن الذهب قبل عصر بناء الأكواخ الجميلة ..

وفي بعض الأحوال كانت هذه الأكواخ مسكونة ، ويمكنك أن تتخلى أن ساكنها هو بنفسه الزائد الذى بناها .. ويمكنك كذلك أن تتخلى أنه كان يملك فرصة العودة لوطنه ثريًا لكنه لم يفعل .. فقد ما له وقرر أن يقطع كل علاقة له بالأقارب والأصدقاء من وقتها ، شاعرًا بالخزي والفشل .. وهكذا يصير شأنه شأن من مات ..

وحول (كاليفورنيا) فى ذلك الزمن ، كنت تجد مجموعة من هؤلاء الموتى الأحياء الذين تخلى عنهم الكبرياء ، وشاب شعرهم ، والذين كانت خواطرهم كلها مزيجًا من الأسف والحنين .. أسف على العمر الذى ضاع ، وحنين للخروج من المعركة والانتقاء منها ..

كانت أرضاً منعزلة لا صوت فيها .. لكن أريز
الخمسات بقي .. لأشياء يجعل مغنوياتك مرتفعة
أو يجعلك سعيداً بالحياة ..

لذا حين قابلت هذا المخلوق عصراً ، شعرت بالرضا
وارتفاع مغنوياتي .. كان في الخامسة والأربعين يقف
على باب أحد الأكواخ التي وصفتها لك ..

لكن الكوخ لم يكن مهجوراً .. كان منظره يدل على
وجود من يعنى به ويدلله .. وكان فناؤه الأمامي حديقة
من الزهور النضرة ..

دعاني الرجل وطلب إلى أن أعتبر نفسي في داري ،
وكانت هذه عادة البلاد ..

كان جميلاً أن أجد نفسي في مكان كهذا ، بعد أسابيع
من الحياة في أكواخ عمل المناجم ، بأرضيتها القذرة
والأسرة غير المرتبة ، والأطباق القصديرية والفون
والقهوة السوداء .. ولا أماراة للزينة إلا بعض صور من
الصحف للحرب في الشرق ينصفونها على الجدران ..

لم أصدق أنني سأسعد إلى هذا الحد إذ أرى ورق
حائط وسجادة وكتباً ومزهريّة صينية ، ومئات اللمسات
التي تبعثرها يد المرأة في المنزل ، وهي أشياء يراها
الإنسان دون أن يدرك أنه يراها ، لكنه يفتقد لها إذا
هي أخذت منه ..

كانت السعادة التي في قلبي قد ظهرت في وجهي ،
ورأها الرجل فقال :

« هذه لمساتها .. لقد فعلت كل شيء بنفسها .. »

ونظر حوله بنظرة هيام مفتون ..

كانت هناك زينة بابائية موضوعة فوق إطار إحدى
الصور ، فأعاد ترتيبها بأنامل حذرة ، وتراجع للنوراء
أكثر من مرة كي يتفقد التأثير ، ثم قال :

« إنها تفعل ذلك .. لا يمكنك أن تعرف ما ينقص هذا

الإطار حتى تفعل هي ذلك .. لا يمكنك الفهم قبل أن
يتم الأمر .. نكنك لا تستطيع أن تعرف القانون المتحكم
في هذا .. شيء أشبه باللمسات التي تضعها الأم على
شعر الطفل بعد تمشيطة .. لقد راقبتها كثيراً وأستطيع
أن أفعل ما تفعله هي ، برغم أنني لا أعرف قانون ذلك ..
لكنها تعرف القانون ..

تعرف (لماذا) و (كيف) كليهما .. لكننى لا أعرف
(لماذا) ولا أعرف (كيف) .. »

واقفادنى لغرفة النوم حيث أغسل يدى ..

إنها غرفة نوم لم أر مثلها منذ أعوام .. لحاف
أبيض .. وسادات بيضاء .. بساط .. ورق حائط ..
منضدة زينة .. مرآة .. أدوات تجميل .. ثم حوض
غسيل به ماء وإبريق وصابون .. وحوائى دسنة من
المناشف النظيفة جداً والبيضاء ، حتى إن المرء
لا يستطيع استعمالها دون أن يشعر بأنه يدنسها ..

قال بكلمات ممتدة :

- « كل هذا عملها .. لا يوجد شيء هنا لم يمس
يدها .. »

كنت أجفف يدى وأتأمل الغرفة ، كما يفعل المرء
حين يرى مكاناً جديداً ، حيث كل ما يراه يريحه ..

وأدركت بطريقة لا يمكن تبريرها أن هناك شيئاً هنا
يريد الرجل أن أراه بنفسى .. وهو يساعدنى بتلميحات
من عينيه ، لذا بحثت حولى مراراً وفى النهاية عرفت
أننى أنظر مباشرة إلى الشيء ..

فرك يديه فى مرح وصاح :

- « عرفت أنك ستجدها ! إنها صورتها ! »

اتجهت إلى الإطار على الجدار ، وهو مصنوع من
خشب الجوز ، وبه صورة عتيقة من التى كانت تطبع
على سطح من فضة ، تمثل أجمل وجه طفولى رأيت
فى حياتى ..

- « فى عيد ميلادها الأخير كانت تسعة عشر عاماً ،
وهو يوم زواجنا .. وحين تراها .. أه .. انتظر حتى
تراها .. »

- « ومتى تأتى ؟ »

- « إنها تزور أهلها .. إنهم يعيشون على بعد
أربعين أو خمسين ميلاً .. لقد سافرت منذ أسبوعين .. »
- « ومتى تعود ؟ »

- « اليوم هو الأربعاء ؟ ستعود يوم السبت فى
التاسعة مساءً على الأرجح .. »

شعرت بخيبة أمل حادة ، وقلت :

- « أنا أسف .. سأكون قد رحلت .. »

- « لا .. لن نرجل .. سيخيب أملها هذه المخلوقة الجميلة .. »

ولو أنها قالت لي هذه الكلمات لما تأثرت بهذا القدر .. كان لدي شوق عارم في أراها ، حتى أنني شعرت بالخوف ، وأزعمت أن أترك هذا المكان من أجل راحة بالي ..

هنا قال لي :

- « كما ترى ، إنها تعجب أن ترى الضيوق .. الأشخاص الذين يعرفون أشياء ويستطيعون الكلام .. إن هذا يسعدنا .. إنها تهوى معرفة كل شيء ويمكنها الحديث كطير .. والكتب التي تقرأها ! إنك ستذهل .. لا تذهب .. إنه وقت قصير جداً .. »

عاد بعد قليل بصورة صغيرة لها ووضعها أمامي ، وقال :

- « هلم .. قل لي وجهها إنك كنت تستطيع البقاء لكنك لم تقبل .. »

أدى هذا إلى تحطيم قدرتي على التدبير ، وقررت أن أخاطر وأبقي ..



- ومعنى تأتي ١١ :

- إنها تزور أهلها .. إنهم يعيشون على بعد أربعين أو خمسين ميلاً ..

قال (توم) :

- « إبنى عجوز وأنى إحباط يجعلنى أبكى يا (هنرى) ..
حسبتهأ هي نفسها عندك فلم أجد إلا خطاباً .. »
- « الجميع يعرف أنها آتية السبت القادم .. »
- « السبت ؟ كيف نسيت ؟ كلنا تستعد لهذا ..
سأذهب الآن ولن أعود إلا حين تكون هي فى الدار أيها
العجوز .. »

وفى ساعة متأخرة من عصر الجمعة ، جاء عامل
منجم مخضرم آخر من كوخه ، وقال :

- « إن الأطفال يرغبون فى أن يأتوا ليمرحوا مع
(المدام) مساء السبت ، لو لم تكن مرهقة بعد
الرحلة .. »

- « مرهقة ؟! اسمع يا رجل ! أنت تعرف أنها
مستعدة لسهرة ستة أسابيع من أجل أطفالك .. »
- ثم إن القادم - ويدعى (جو) - طلب سماع خطابها ..

* * *

فى هذه الليلة دخلنا الغليون الذى يسبب الدوار
وتحدثنا عنها ..

- جاء الخميس ورحل ، وقرب الغروب جاء عامل
منجم من الرواد رخبى بن بحرارة ، وقال :
- « لقد مررت كى أسأل عن المدام الصغيرة ..
ومتى ستعود ؟ »

قال مضيقى :

- « لئى خطاب منها .. هل تريد سماعه ؟ »
- « نعم .. لو لم تتضايق يا (هنرى) .. »

أخرج (هنرى) الخطاب من حافظته ، وقال إنه
سيتجاوز بعض الأجزاء الخاصة ثم راح يقرأ .. كان
قطعة من الأدب العاطفى المنعش ، وينتهى بتحيات حارة
للأصدقاء والجيران ..

فما إن فرغ من القراءة حتى قال :

- « هلم يا (توم) .. أبعد يديك عن عينيك ! أنت
سريع القاتر .. »

جاء عصر السبت ، ووجدت أُننى أخرج ساعتى
أكثر من اللازم ، فقال لى (هنرى) :

« أنت تظننها ستتأخر ... أليس كذلك ؟ »

شعرت بالحرج ، ففكرت إن هذه عادة عندى ، لكنه كان
متوقفاً بدور ، واضطجعت لى إلى بداية الطريق ليرمى
المسافة عن بعد ، وقال :

« أعرف أنها ستكون هنا في التاسعة مساءً ،
لكنى بدأت أقلق .. أشعر أن شيئاً قد حدث .. أنت
تشعر بذلك أليس كذلك ؟ »

كلمته بغشوة ، فأكمش ونظر لى بحزن وخجل ..

جاء أحد المخضرمين الآخرين قبل المساء ، وطلب
من (هنرى) أن يقرأ له الخطاب ، وراح يتحدث في
موضوعات مسئلة مداولة أن يبداً زعر صاحبه ..

وقال له :

« إنها وعدت بالمجيء في التاسعة .. وهن خيت
أمك أو خذلتك من قبل يا (هنرى) ؟ لسوف تهرأ
بوعدها .. هذا مؤكد كما أنك مولود .. »

وبعد قليل وصل (توم) و (جو) ، وراحت الأيدي
ترين المنزل ياتزهور .. وفي التاسعة قرر الرجال أن
يعزفوا بالآت موسيقية أحضروها ، وكانت هذه الأدوات
كماناً صغيراً و (باتجو) و (كلارينيت) ، وراحوا يعزفون
موسيقا راقصة يضيفون لها إيقاعاً بأقدامهم ..

وعلى الباب وقف (هنرى) يرمى الطريق وجسده
يرتجف من فرط معاناة عقلية .. لقد شرب مراراً
نخب صحة زوجته .. لكنه قلق ..

ومن جديد أقعم (جو) الأقداح ، ومددت يدي إلى
أحدها ، لكن (جو) همن لى في « زم :

« دع هذا .. وخذ قدحاً آخر .. »

شرب (هنرى) قنحه ، ونظر إلى الساعة وقال :

« ساعدونى .. أريد أن أرق .. »

ساعدوه على الرقاد - وهو يرتجج - كى ينام على
الأريكة ، لكنه راح يتكلم كما يتكلم النائم :

« أسمع صوت الخيول .. هل جاءوا ؟ »

قال (جو) :

« لقد جاء (جيمي فاريش) ليقول إن المجموعة تأخرت ، لكنهم أتون .. إن حصانها يعرج لكن هذا لن يؤخرها أكثر من نصف ساعة .. »

« أنا سعيد لأن مكروها لم يحدث .. »

وغرق في النوم قبل أن تنتهي الكلمات ..

نزع الرجال ثيابه ، وتأهبوا للرحيل فصحت :

« لا تذهبوا يا سادة ، إنها لا تعرفني .. أنا غريب .. »

تبادلوا النظرات ، ثم قال (جو) :

« هي ؟ المسكينة .. إنها ميتة منذ تسعة عشر

عاماً .. »

« ميتة ؟ »

« هذا أو أسوأ .. لقد ذهبت لزيارة أهلها بعد

ستة أشهر من الزواج ، وعلى بعد خمسة أميال من

هنا هاجمها الهنود ، في مساء السبت وهي عائدة ،

ولم يسمع عنها أحد من وقتها .. »

« وهل جن نتيجة لذلك ؟ »

« لم ير لحظة عقل واحدة من ساعتها .. لكن

حالته تسوء في الوقت ذاته من كل عام ، وعندها تبدأ في التردد عليه ، ونشجعه ونسأله عن أخبارها ، ونزين البيت بالزهور ، فعلنا هذا تسع عشرة مرة .. في أول عام كنا سبعة وعشرين ، لكن لم يبق منا الآن سوى ثلاثة .. »

« لقد خدنا وإلا سيصيبه هياج رهيب .. ونسوف تهدأ حالته غذا ويعتقد أنها معه ، حتى تحين اللحظة ذاتها العام القادم .. »

« رياه ! لقد كانت عزيزة علينا بحق ! »

* * *

واتطرق إلى العالم بحثاً عن المسرات التي ينعم بها
الشباب ، لكن كل واحدة منها كانت مخيبة للأمل
وخاوية ، وعانت كل مسرة منها ثملة خزيًا حين
ترحل ، وفي النهاية قال :

« يا لئلك الأعوام التي أضعتها ! لو كان بوسعني
الاختيار لاخترت بحكمة .. »

هبات الحياة الخمس

الفصل الأول

عند فجر الحياة جاءت جنبة طيبة تحمل سنتها ،
وقالت :

« ها هي ذى الهبات .. خذ واحدة واترك الباقيات ..
كن حذرًا وأحسن الاختيار .. ولتكن بحكمة لأن واحدة
منها ذات أهمية .. »

كانت العطايا خمسًا هي : الشهرة والحب والسرور
والثروة والموت ..

في حماسة قال الشاب :

« لا داعي للاختيار .. »

واختار السرور ..

الفصل الثانى

ظهرت الجنية وقالت :

« أربع من الهبات باقية ، فاختر واحدة أخرى ،
وتذكر أن الوقت يجرى وواحدة منها ثمينة .. »

فكر طويلاً ثم اختار الحب ، ولم ير الدموع التى
ملأت عينى الجنية ..

بعد أعوام طويلة طويلة ، جلس الفتى فى منزل خاو
أمام تابوت ، وقال لنفسه :

« قد رحل الأحباء الواحد تلو الآخر وتركونى ،
والآن ترفد هنا أعزهم وآخرهم .. لقد مرت بى كآبة
تلو كآبة ، ومقابل كل ساعة من السعادة فإن الحب
- ذلك الشجر الغادر - قد جعلنى أدفع ألف ساعة من
الحزن .. »

وأبنى لأمقته من قلب قلبى .. »

★ ★ ★

الفصل الثالث

« اختر ثانية .. »

كانت هذه هى الجنية تتكلم .. وأردفت :

« لقد علمتكم السنون الحكمة أو هكذا ينبغي أن
يكون .. بقيت ثلاث هبات ، وواحدة منها ذات قيمة ،
فتذكر واختر بعناية .. »

فكر الرجل قليلاً ثم اختار الشهرة ، فتنهدت الجنية
ورحلت ..

مضت الأعوام ، وها هو ذا الرجل يجلس وحيداً فى
الظلام يفكر :

« لقد ملأ اسمى الصائم واستدحه الجميع على كل
لسان ، وراق لى هذا لفترة .. ألا ما أقصرها ! ثم جاء
الحسد ثم الانتقاص من قدرى ثم الافتراء فالتمقت .. ثم
جاء الاتهام ، فالسخرية التى كانت بداية النهاية ، ثم
جاءت الشفقة التى هى جنازة الشهرة .. »

« إنها مرارة وشقاء الشهرة .. الشهرة هدف الأوهال
فى ذروتها ، وهدف المقت والشفقة عند رحيلها .. »

★ ★ ★

وبعد ثلاثة أعوام جنس الرجل يرتجف في غرفة على
السطح ، هزلاً شاحباً أجوف العينين ، يرتدى الأسمان
يمضغ كسرة خبز مغمضاً :

- « سحقاً لهبات الحياة ! للسخريات والأكاذيب
المزخرفة .. إنها ليست هبات بل هي قروض ..
السعادة .. الحب .. الشهرة .. الثراء .. كلها أقتعة
تلحقناق الدائمة : الحزن .. الألم .. العار .. الفقر ..

» لقد قالت الجنية حقاً .. لم يكن لديها سوى هبة
واحدة ثمينة .. يا لتفاهة ورخص كل ما عرفت
بالنسبة للهبة العزيزة الناطيفة ، التي تطوى تلك الآلام
التي تضطهد الجسد ، والشعار والأحزان اللاني وأكذن
القلب والروح .. تطويها في نوم بلا أحلام .. إنسى
مرهق وأريد الراحة .. فلتجلبها لي ! »

★ ★ ★

الفصل الرابع

وجاء صوت الجنية تقول :

- « اختر ثانية .. لقد بقيت هبتان .. لا تبتس .. في
الهداية كانت هبة ثمينة واحدة ، وهي ما زالت هناك .. »

قال الرجل :

- « إنها الثروة التي هي القوة ! نعم كنت أحمق !
هكذا تستحق الحياة أن تعاش .. سأبذر وأبهر العيون ..
كل هؤلاء الساكسين سيزحفون في الوحل أمامي ،
وسيطعمون قنبي الجائع بجسدهم .. ستكون عندي كل
التمتع والاذاند .. كل مفاتيح الجسد وكل مسرات الروح ..
سأستري كل شيء .. سأستري الاحترام والإذعان
والثقدير .. وكل مجد رخيص في الحياة ومنحه لي
سوق العالم بالغ التفاهة ..

» لقد أضعت كثيراً من الوقت ، واخترت اختيارات
خاطئة ، لكنني كنت جاهلاً .. »

الفصل الخامس

سيرة ذاتية ماهرة ..

أُلحِج على اثنين أو ثلاثة أن أكتب سيرتي الذاتية ،
وقالوا إنهم سيقرونها لو كان عندهم وقت فراغ ،
فأذعنت لهذا الاتحاح الجماهيري المحموم وها هي ذي
قصة حياتي ..

إن بيتنا بيت نبيل نه أصول عريقة ، وأقدم أجدادي
الذين ينتمى لهم آل (توين) هو صديق للأسرة يحصل
اسم (هيجنز) . كان هذا في القرن الحادي عشرين
كان قومنا يعيشون في (أبردين) بمقاطعة (كورك)
بإنجلترا .. أما لماذا تنسب الأسرة كلها إلى اسم الأم
بدلاً من اسم (هيجنز) قلنا لم يرغب أحد في حنه ..
إنه سر قديم ساحر يجدر بنا أن نتركه وشأنه^(*) ..
إن كل الأسر العريقة تفعل ذلك ..

(*) أمقال ماهر بالطبع ، لأن (مارك توين) اسم مستعار
للكتاب كما قلنا في المقدمة !

جاءت الجنية ومعها الهبات الأربع ، لكن (الموت)
كان ناقصاً ، وقالت :

« لقد أعطيتك نطفة رضيع كان جاهلاً ، ووثق
بى كي أختار له الاختيار الأفضل .. »
قال لها :

« يا لتعاستى ! وماذا بقى لى أنا ؟ »
- « الشيء الذى لا يستحقه حتى من هو مثلك ..
إنه ذلك الألم المشين للشيخوخة ! »

كان (آرثر توين) رجلاً عظيم الشأن يستجدي العارة
على الطريق في زمن (ويليام روفوس) .. وفي سن
الثلاثين دخل أحد الملاحين الإنجليزية القديمة يدعى
(نيوجيت) ، ولم يعد من هناك .. »

أما (أوجستوس توين) - عام ١١٦٠ - فكان رجلاً
مرحاً .. اعتاد أن يسن سيفه القديم ، ويتجه إلى
مكان مقنن مناسب ، ويوجه في عابري السبيل كي
يراهم يتخافزون .. كان كثير المرح مقصوداً على
الدعاية ، لكنه كماذى بعض الشيء ..

وفي آخر مرة شوهد فيها يسارس هذه التسلية ،
انتزع الحناكم أحد طرفيه ، وعلقه على مكان جميل
عال في (كينبار) حيث يسلى الناس ..

ثم أماتى عام تظهر شجرة أسرتى مجموعة من
الجنود النبلاء والرجال ذوي الأرواح الخلاقة .. كلهم
كان يذهب للمعركة مغنيا خلف الجيوش ، ثم يعود الجيش
فيهرولون أمامه ..

في القرن الخامس عشر كان لدينا (بوتوين) الذى
سمّاه الناس (المتعلم) .. وكان يملك خطاً جميلاً ،



البح على اثنين أو ثلاثة أن يكتب ميرنى الذاتية ، وقالوا إنهم
سيقرونها لو كانت عندهم وقت فراغ ..

وكان بوسعهم تقليد أى خط .. إلا أنه كلف مرة بتحطيم
صخرة ضخمة ، وأدت خشونتها إلى تحطيم يده ، وقد
استمتع بمهنة تحطيم الصخور بعد ذلك ، ومارسها
لمدة اثنين وأربعين عامًا ، وقد مات فى أثناء العمل ..

ما كان ينتهى من عقد تكسير صخور ، حتى تعطيه
الحكومة عقدًا جديدًا .. وكان رفاقه يحبونه ، وكان
عضواً مهماً فى مجتمعهم الكريم .. الذى كان يطلق
عليه Chain Gang (أى المكبلين بالسلاسل للعمل فى
الأشغال الشاقة) ..

كان يقص شعره بعناية ، ويحب ارتداء الثياب
المخططة ، وكان موته خسارة لوطنه لأنه كان محترفاً ..

بعد أعوام ظهر (جون مورجان توين) ، وقد جاء
إلى البلاد مع (كولومبوس) عام ١٤٩٢ مسافراً على
سفينة .. ويبدو أنه كان ضيق الخلق طينة الرحلة ، وكان
يطلب الرنجة الطازجة على الإفطار ، ولم يمر يوم لم
يصعد فيه إلى ظهر السفينة ، ويشمخ بأفقه فى السماء
مزجراً ، قائلاً إنه متأكد من أن (كولومبوس) لا يعرف
إلى أين هو ذاهب ، وبالتأكيد لم يذهب إلى هناك من قبل ..

وحين دوت الصرخة الخالدة : « الأرض ! » ، وحين
التهبت الحماسة فى كل القلوب ، لم يتلأثر قلبه ..
لقد تأمل المشهد عبر المنظار المقرب المتسخ ، وقال :
- « فلتذهب الأرض إلى الجحيم .. إن هذا طوف ! »

وحين ركب هذا المسافر الغريب السفينة ، لم يكن
معه سوى جريدة قديمة لف فيها منديلاً عليه حرفاً
(د . ج) ، وجورياً من القطن عليه حروف (ل . و . ج) ،
وجورياً من الصوف عليه حروف (و . ن . ر) .. إلا أنه
فى أثناء الرحلة ظل قلقاً بخصوص (متاعه) أكثر من
قلق كل المسافرين مجتمعين ..

وفى العواصف كان عليهم أن يكملوه ، لأن صراخه
بخصوص (متاعه) كان يجعلهم عاجزين عن سماع
الأوامر ..

وحين رست السفينة كان (متاعه) الآن يتكون
من ثلاثة صناديق ، لكنه أصر على أن (متاعه) قد
سرق وصمم على تفتيش المسافرين .. كان هذا أكثر
من اللازم لأنهم ألقوه فى البحر ..

وانتظروا أن يظهر ثانية ، لكن لم تبد منه فقاعة
واحدة .. ولاحظوا فى دهشة أن مرساة السفينة اختفت ،

وأن حبل المرساة يتدلى وحده إلى الجانب ، ويمكننا أن نقرأ ما حدث في سجل السفينة :

« أدركنا أن هذا التراكب المزعج قد سرق المرساة .. وباعها إلى السكان المتوحشين داخل البلاد .. »

إلا أن هذا النجد كان يملك صفات تبيلة ، ونذكر الأذهان هنا بأنه كان أول رجل يهتم بعملية تحضر الهنود .. لقد بنى لهم سجنًا مريحًا ومشقة ، وهنا تصوير المذكرات أقل وضوحًا وصراحة .. وتنتهي فجأة بأن تذكر أن جدى هذا قد ذهب (ليرى المشقة تؤدي عملها مع أول رجل أبيض فى أمريكا) ، وهناك أصيب بشيء أدى لموته ..

أما الحفيد الأكبر له فكان شهيرًا عام ١٦٠٠ وشيء ما .. وقد اشتهر فى الصحف باسم (الأدميرال العجوز) . كان يقود السفن السريعة مسلحًا ومعه رجال كثيرون . وقد أدى خدمة عظيمة فى (تسريع) الحركة التجارية فى البحر .. فالسفن التى كان يلاحقها كانت تقطع المحيط فى وقت قياسي .. أما إذا تأخر أحد القوارب لسبب ما ، فإن سخطه يصير عظيمًا حتى

لا يتمالك نفسه ، عندها كان يأمر القارب ، وينتظر أصحابه حتى يجزئوا ويطالبوا به ، لكنهم لم يفعلوا ذلك عادة ..

وكان يحاول إبعاد الكسل عن بخارة القارب الأسير بأن يرغمهم على الرياضة والسياسة ، وكان يسمى هذا بـ (المشى على اللوح الخشبي) ، وكان البحارة جميعًا يحبون هذه الرياضة ..

فإذا تأخر أصحاب القارب كان (الأدميرال) يحرقه حتى يضمن لهم مبلغ التأمين ..

أما (تشارلز هنرى توين) فعاش فى أواخر القرن السابع عشر ، وكان مبشرًا دينيًا متحمسًا ، وقد قام بهداية ستة عشر ألف واحد من الجزر الجنوبية ، وعلمهم أن ارتداء قلادة من أسنان الكلب حول العنق منظار ليست ثيابًا كافية للمجيء إلى دار العبادة .. وكان أتباعه يحبونه جدًا جدًا ، وحين انتهت جنازته (وخرجوا جميعًا من المطعم) كانت الدموع فى عيونهم ، وقالوا إنهم أحبه جدًا جدًا ، وتمنوا لو كان هناك المزيد منه ..

أما الصياد العظيم (توين) ، فأضاء منتصف القرن الثامن عشر ، وساعد الجنرال (برادوك) بكل قلبه كي يقاوم الطاغية (واشنطن) وكان هذا الجد هو الذي أطلق النار ١٧ مرة على ظهر (واشنطن) من وراء شجرة .. لكن القصص تقول إن الوعد كف عن إطلاق النار بعد الرصاصة السابعة عشرة ، لأنه افترض أن (واشنطن) تحميه السماء لأنها تدخره لهدف سام ، وهكذا لم يجرؤ على إطلاق المزيد .. وأنا أرى أن هذه القصص تخل بدقة التاريخ . إن ما قاله جدى هو :

- « لا جدوى (هيك) من هذا .. إن (واشنطن) (هيك) ثمل يترنج .. ولا يقف فترة تسمح للإنسان بالتصويب عليه بالرصاص (هيك) .. »

لهذا كف عن المحاولة بعد سبع عشرة طلقة ، وكان هذا سلوكاً متعللاً جيداً بالاحترام ..

إن نبوءته قد تحققت على كل حال ..

في الواقع هناك فرع جاتى لشجرة أسرتى ، يمتاز أفراده بأنهم فى بحثهم عن الشهرة التى طالما ظمننا إليها ، اختاروا الطريق السهل بأن ذهبوا إلى السجن بدلا من أن يشنقوا ..

ليس من الصواب حين تكتب سيرة ذاتية أن تتبع أجدادك إلى فترة قريبة من فترتك .. الأفضل أن تتكلم بإبهام وغموض عن جدك الكبير ، ثم تتجاهل ذكر كل من جاء بعده حتى تصل لنفسك ، وهذا ما أفعله الآن ..

ولدت دون أسنان وفى هذا تفوق على الملك (ريتشارد الثالث) ، لكنى ولدت دون حذبة على ظهري أيضا ، وفى هذا تفوقت عليه ..

كان أهلى غير فقراء ، ولم يشتهروا بالأمانة الشديدة ..

سيبدو تاريخ حياتى وديعا جدا إذا ما قورن بأسلافى ، لهذا ربما كان من الحكمة ألا أكتبه إلى أن يتم شنقى ..

ولو أن باقى السير التى قرأتها حذت حذوى ، وتوقفت عند الأجداد حتى يحدث شيء كهذا للأحفاد ، لكان هذا شيئا مفيدا للجمهور الذى يقرأ ..

فما رأيك أنت ؟

(مارك توين)

★ ★ ★



وصية الثلاثين ألف دولار

هذه مجموعة من القصص وأشياء القصص ،
للساخر الأمريكي الأعظم الذي يصعب إسكاته :
(مارك توين) ..

إنها خليط من الأفكار الذكية ، والدعابة التي
تدفعك إلى القهقهة ، والمرارة التي تصل إلى حد
اليكاء . إنها (الفكاهة الحزينة) أو (الحرر
الضاحك) لو صح التعبيران ..

34